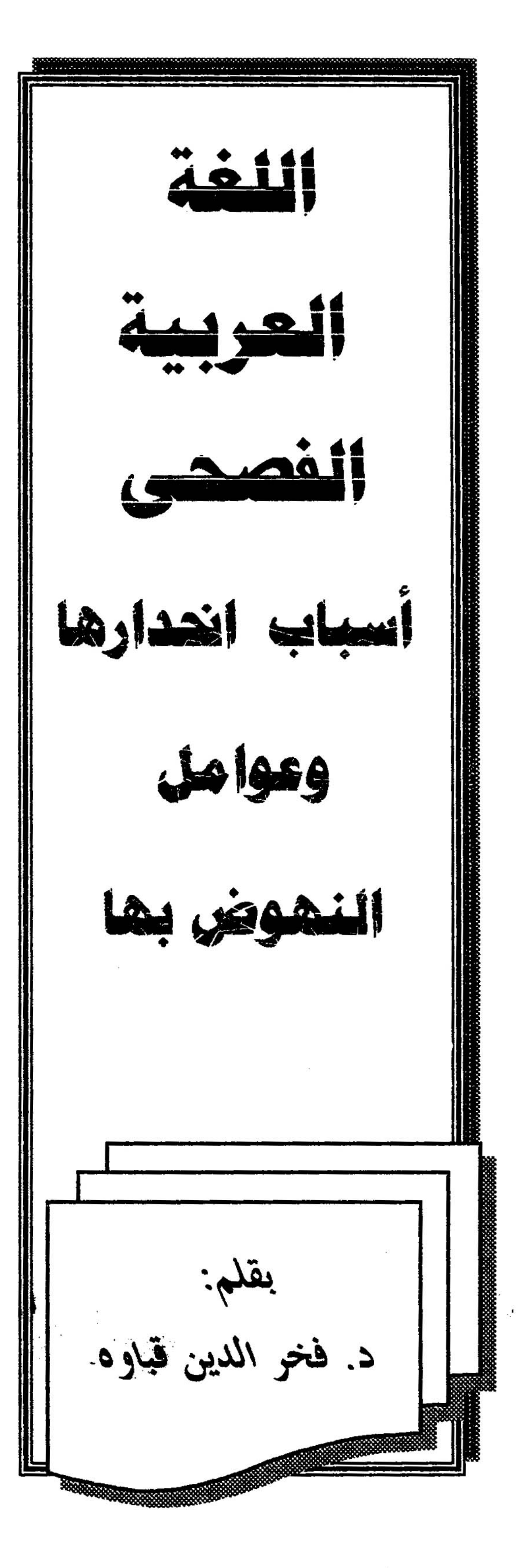


نحن، أبناء العرب في المشرق والمغرب نعاني كثيراً من الآلام المشتركة، ونحس بحاجة إلى التعاون على معالجتها للتخلص من ذيول التخلف المرير. وبعض هذه الآلام عميق الجذور في نفوسنا، خطير الأثر في حاضرنا ومستقبلنا، بعيد المدى في تكويننا الحضاري والإنساني، يكاد يستعصي على التقويم والإصلاح.

ولعل من أبرز هذه الآلام المستعصية ما تنوء به لغتنا العربية الفصحى، فنحن مدرسين وأدباء وعلماء، كثيراً ما نشكو مما آلت إليه هذه اللغة في ديار العرب.

إنها تعيش حبيس بعض الدوائر الصغرى من حياتنا العلمية، ولا تستطيع أن تتنفس في كل ميدان وعلى كل قلم ولسان. بل إن أكثر المثقفين ومدعي العلم والأدب ليعجز أن يتمثل هذه اللغة المباركة في نشاطه وإنتاجه، فيصب عليها سخطه وغضبه، ويرى النجاة من عثراته في التفلت من أحكام العربية وقواعدها لينطلق في متاهات العجمة والضلال.

حتى لقد أصبح من أشيع المبادئ وأروجها أن تتسلل أصابع العامية والأعجمية إلى لغة العلماء والأدباء، بل الدارسين والمتأدبين.

العامية والثقافة

وإننا لا ننكر أن تكون اللهجات العامية، في بلاد العرب، قد دخل عليها تحسن ملموس في هذا القرن، بعد جلاء دول الاحتلال والاستعمار، فارتفعت من حضيض العجمة المغرقة إلى مستوى يتصل ببعض مظاهر

الفصحى وأساليبها. وقد ساعد في ذلك على انحسار اللغات الأعجمية التي كانت مستبدة بالثقافة والتعليم والتوجيه، وتقلص رقعة الأمية في المجتمع العربي. ولذا أصبحت ترى اللهجات المحلية تغزوها كلمات فصيحة، وجمل عربية، وعبارات قريبة جداً من الفصحى.

ولعل هذه الظاهرة قد ضللت بعض الباحثين، فباتوا يرون أن مشكلة اللغة مرها يسير، وإنها قضية اجتماعية ثقافية، علاجها محو الأمية ونشر التعليم والثقافة.

انحدار الفصحى

والحق أن ارتفاع مستوى العامية واكبه انحدار لغة العلم والأدب، وتدني أساليبها ومفرداتها، كتابة وقراءة وأداء وإذا قدر لنا أن سير في هذا الاتجاه مراحل أخرى فإن اللغة الفصحى ستصبح، بلا شك، في خطر محقق ينذر بالفناء والضياع. فاللهجات العامية، وهي تعارض الفصحى وتستقي منها، تنقل إليها بعض تعابيرها وكلماتها على ألسنة المثقفين وأقلامهم، فتشدها إلى ميادين غريبة تهدد بالاضمحلال والاندثار.

ولهذا أصبح ضعف اللغة العربية في صفوف المثقفين والمتعلمين ظاهرة ملحوظة تزداد قوة يوماً بعد يوم. فقد كان هؤلاء في عهود الاحتلال والاستعمار شد حرصاً على فصاحة الكلمة، وبلاغة العبارة، والاستقاء من ينابيع البيان العربي الأصيل، والأعراض عن رطانة الأعاجم وسفساف العامة.

أما اليوم فقد أصبحنا نراهم ينزلقون إلى مهاوي العجمة العامة واللهجات المحلية فيستمدون منها عامدين أو غافلين كثراً من مادة نتاجهم الأدبي والعلمي.

وأنت ترى هذا الخطر يتفاقم مع الأيام حتى ليكاد يشكل عثرة أزلية، ومعضلة أبدية في طريق الأمة نحو اكتشاف ذاتها، وتحديد سبيل الحياة الكريمة المطمئنة.

إنها ليست مسألة لغوية اجتماعية فحسب، وإنما هي داء نفسي وعقلي وعلمي، يهدد مقومات العرب وحضارتهم ووجودهم في الحاضر والمستقبل.

وإذا حاولنا أن نتلمس بوادر هذا الداء، ونتتبع أصوله ومصادره، لنضع أيدينا على الأسباب التي ولدته ورعت نموه وتطوره، استوقفتنا نقاط كثيرة متداخلة، يتعذر حصرها وتحديد ملامح كل منها.

وحسبنا أن نذكر ها هنا أبرزها وأخطرها.

ثنائية لغوية

ونعني بالثنائية اللغوية هذا التداخل العجيب بين الفصحى واللهجات الدارجة يستخدمها كل عربي، مثقفاً كان أم أمياً. فهو يتلقى في طفولته أول لهجة عامية متهافتة، ويزود بها في البيت ثم في الشارع والنادي والملعب والملهى، وسائر مصادر الثقافة الشعبية. بل إنه يتعلم بعضها أيضاً في المدرسة والمعهد والجامعة ومن المذياع والصحافة والتلفاز، ويمارسها في جميع شؤون حياته تفكيراً وتعبيراً. حتى إذا درس اللغة الفصحى قدمت إليه مثقلة بأوزار العامية وما تحمله من آثار محلية وأعجمية تستبد

بفكره ولسانه وقلمه، وتغمر تلك الشذرات الفصحى، وتفسد مدلولها وغاياتها التي ترمي إليها.

فإذا أراد الكتابة، بعد هذا، أو النظم أو القراءة في محفل قام في نفسه صراع خفي بين قوتين متدافعتين متناقضتين، أحدهما تجره إلى الكثرة المفرطة التي غمرته بها بيئته، والأخرى تشده إلى بوارق غائمة مما زودته بعض المصادر العربية الأصيلة. فإذا هو يعاني عنفوان الصراع، ويدفع نفسه جاهداً ليرتفع بها إلى أصالة اللغة وصفائها، ولكنها يجابه بسلطان العامية المسيطرة على ثقافته وقدراته، وبتفلت زمام الفصحى من يده فينهار أمام القوة الكبرى، ويستسلم لتيارات اللهجات الدارجة، تتخلل لغته فتفسدها أو تطغى عليها.

لغة هجينة

وقد كان لهذا الرجحان عوامل مساعدة متناثرة، أظهرها وأبلغها تسلط الأعاجم على البلاد العربية برجالهم وثقافتهم وحضارتهم ولغاتهم. فقد عشنا قروناً متوالية عبيداً أو كالعبيد، لسطان الأعاجم مماليك وعثمانيين وبربراً وفرنجة، فاضمحل التيه العربي، وذاب الاعتداد بالنفس واللغة والدين والتاريخ ليحل محله الانبهار بالعجمة وزخارفها، والاستسلام لبهرج التقليد والانحدار، والتردي في أحضان الصغار.

حتى أن كثيراً من أبنائنا أصبحوا ينظرون إلى الفرنجة ولغاتهم وثقافتهم بعين الإكبار والإجلال، ويرون الحضارة الإسلامية واللغة العربية أقل من تملأ قلوبنا وعقولنا، وتثمرا واقعاً يمهّد للنمو والتحرر والتقدم.

ولذا يطالعنا بين حين وآخر تعشق أبناء العروبة للغات الأعاجم وأخلاقهم، وتفاخرهم باستخدام اللغات الهجينة في كلمات أو عبارات أو جمل، وأعراضهم عن البيان العربي تحت وطأة الضعف اللغوي الذي يعانون والانهيار النفسي الذي يكابدون.

صحيح أن اللهجات الدارجة هي في الأصل تشويه للعربية الفصحى، وصحيح أيضاً أن هذا التشويه لم يكن للاحتلال والاستعمار يد في غرس جذوره، وأنه نشأ وتولد من مصادر ثلاثة: انتشار الموالي والمولدين، واستلطاف لكنه الأطفال والأعاجم، والإعراض عن فحولة الكلام وفصاحته، بما جبل عليه الإنسان من اخلاد إلى السهل الميسور، وتفلت من قيود القوانين الحازمة. ولكننا لا نستطيع أن نغفل الآثار التي كانت للمحتلين والمستعمرين في تعميق هذا الاتجاه، ورعايته، ودفعه نحو الرسوخ والاستمرار.

وقد ساعد على ترجيح كفة العامية وتثبيت دعائمها واستحكام سلطانها، أن النتاج العلمي والأدبي الذي أصدره العرب والمستعربون في هذا العصر كان مصبوغاً بألوان هجينة مهلهلة ركيكة، أقبل عليها المثقفون والمتعلمون، فرسخت في أذهانهم وألسنتهم تلك الرطانة، ودمرت ما بقي من فلول العربية الفصحى، وإذا خلا الكتاب أو الصحيفة من الركاكة والهجنة لم يكن في مستوى لغوي رائق، وكثرت فيه الأخطاء والسقطات، ولم يحظ بالضبط المناسب للحروف، فكانت قراءته تزيد المثقفين ضعفاً وانحداراً.

مناهج قلقة

والسبب الثاني الخطير في انحدار العربية الفصحى هو اضطراب التعليم في الوطن العربي، ونعني به ما يسود المناهج الدراسية، والسياسة التعليمية، وأساليب التربية والتعليم، وشخصيات المعلمين، من فوضى وقلق واضمحلال.

فالمناهج، ولا سيما مناهج اللغة العربية، لم تستطع أن تجد لها بعد الاستقلال مستقراً واضح المعالم، جلي الهدف، ناجح الوسائل، تنطلق فيه من مراحل العبودية والاستعمار إلى فسحة التحرر والبناء. ومازالت حتى يومنا هذا تتخبط بين مد وجزر، وتنتقل من سيء إلى أسوأ، فالمسؤولون يتعاورون هذه المناهج، ويتصرفون فيها كل بحسب ما تمليه عليه أوهامه ونظراته المرتجلة فيكون تقلقل وتغيرات مستمرة ليس لها ضابط هادف، أو روح عامة موحدة.

العلوم الإنسانية

والسياسة التعليمية في الوطن العربي ليس فيها وضوح يصل مراحل التعليم بعضها ببعض، يجعل كلاً منها متمماً لما قبله وبعده. وهي ما تزال تجاهر بالتنكر للعلوم الإنسانية، والتشجيع للعلوم الطبيعية. وقد أدى هذا، بلا شك، إلى تضعضع مكانة اللغة العربية وما يدور في فلكها من علم وفن. ولهذا ترى جمهور الطلاب، والمتفوقين منهم بخاصة، ينصرفون بجهودهم إلى دراسة الطب والهندسة والعلوم التطبيقية، ويعرضون عن تجنيد أنفسهم وكفاءاتهم لخدمة العربية، فتفقد بذلك عقولاً فتية وقلوباً متعطشة، وقدرات هائلة، ونفوساً مندفعة نحو الإبداع والإنتاج.

التعليم بالعامية

وأساليب التعليم عندنا تغفل اللغة الفصحى، وتجيز للمعلمين أن ينقلوا العلوم والفنون باللهجات المحلية الدارجة بل إنها لتفرض أحياناً أن يدرسوا بعضها باللغات الأعجمية، وكثيراً ما تنقل اللغة العربية الفصحى إلى الطلاب بأساليب عامية أو شبه عامية، فتدخل عقولهم، وترسخ في ألسنتهم هجينة شوهاء. أضعف إلى هذا أن القراءة الصامتة والهجرية تشجع الطلاب، في شكلها المتبع اليوم، على إهمال الفصحى والتنكر لها، وإتقان الأساليب العامية في التعبير واللفظ والأداء.

وبهذا يقوم في نفوس الناشئة انفصال كبير بين العلم والثقافة والخبرة من جهة، واللغة العربية الفصحى من جهة ثانية، فإذا أرادوا نقل ما في نفوسهم، من تجارب وخبرات وعواطف وأخيلة، لم يجدوا غير العامية أو الأعجمية سبيلاً.

اختبار الذاكرة

والامتحانات، على ما فيها من عناية بالعربية، لم تعط اللغة الفصحى حقها في التقويم والتقدير. فكلنا يعلم ما ظهره مؤسسات التعليم من شروط خاصة لنجاح الطلاب في مواد اللغة العربية بل في نجاحهم العام الذي يرتبط بتلك المواد. وكلنا يعلم أيضاً أن تلك المظاهر جوف سطحية،

لا تدعمها أسس علمية تخدم تمكين الفصحى وسيادتها.

فالامتحان التحريري يجوز فيه كل تعبير، وتغتفر فيه أكبر الأخطاء وأشنع التراكيب، ويكتفي فيه بأداء المعلومات دون النظر إلى اللغة التي أدتها وعبرت عنها. ثم تكون المساعدات تلو المساعدات لإنقاذ الراسبين، ودفعهم إلى الصفوف التالية أو الجامعة أو الشارع والامتحان الشفهي أو العملي ليس له كبير اهتمام باللغة، وحسب الناجح فيه أن يجتاز مقاييس اختيار الذاكرة والذكاء والأداء.

قدرة هزيلة

وشخصيات المعلمين لدينا ينقصها الوعي اللغوي والاجتماعي، وتشغلها حاجات الحياة بأثقالها وهمومها. فالمعلمون في المدارس الابتدائية، والمدرسون في المدارس الإعدادية والثانوية والمعاهد، والأساتذة في الجامعات، عندهم كثير من الرواسب اللغوية المختلفة التي تزيد اللهجات العامية قوة ونماء. ومدرس العربية خاصة يمثل في نظر الطلاب، صورة الجمود والجفاف والتعصب، لأنه لم يحظ بالثقافة الواعية، واللغة العملية الرشيقة، والنظرة السليمة إلى دور اللغة في التعليم، وقدرتها على النمو واستيعاب حاجات الأمة في مراحل حياتها المختلفة. ورجال التعليم عامة يعيشون في بؤس وفاقة، يعانون مرارة الحاجة والحرمان فلا يجدون فرصة سانحة للنهوض بأنفسهم وطلابهم. وحسبهم أن يرمموا بعض الثغرات المتقادمة، ويقدموا إلى الأمة أجيالاً من العقول المثقلة، والقلوب العازفة عن فصاحة العربية وأدبها وعلومها وفنونها.

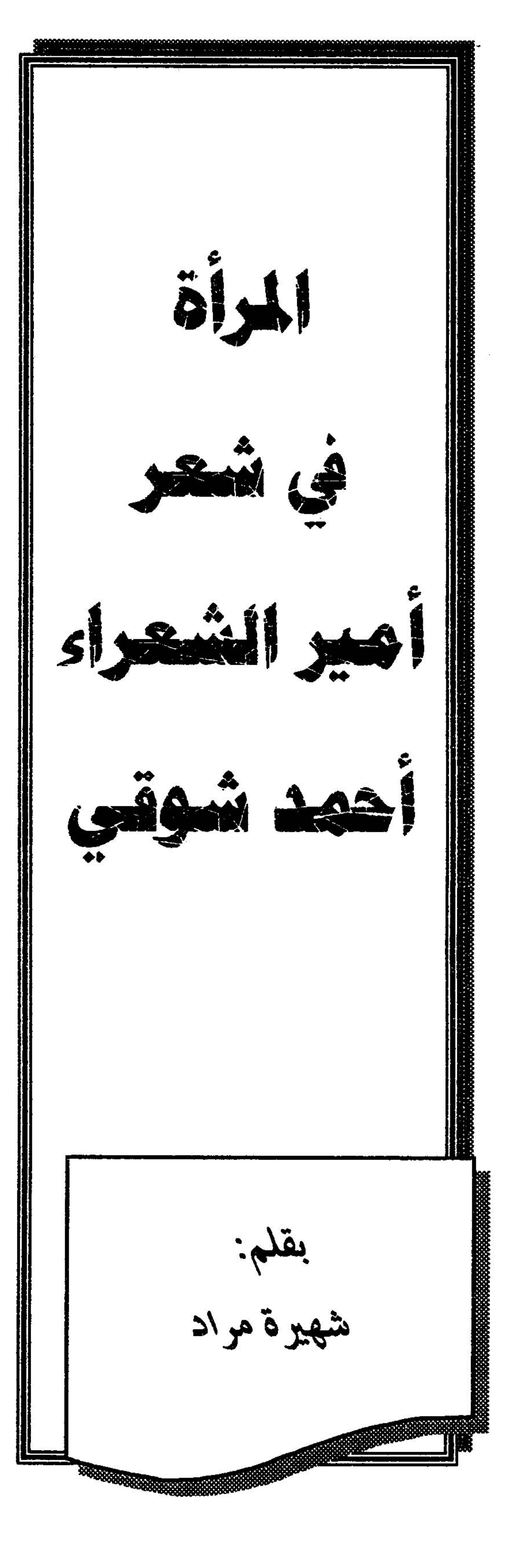
أضف إلى هذا أن كثراً من رجال التربية والتعليم يصل إلى منصبه، ويتسلم زمام التوجيه والقيادة، بشهادة شكلية من إحدى الجامعات، أو أحد المعاهد أو الأحزاب، وليس لديه من الكفايات والإمكانات ما يرشحه لهذا العمل الخطير.

فإذا علمنا أن مهمة المعلم تربوية قبل أن تكون تعليمية، وأنه لا يستطيع أن يقوم بها بنجاح إلاّ حين يسيطر على قلوب طلابهم وعقولهم، وينال ثقتهم وتقديرهم لشخصيته وكفاياته، ويجعلهم ينظرون إليه نظرة الإعجاب والتقليد..

إذا علمنا هذا كله علمنا أية جريمة نقترفها حين نهمل شخصية معلم العربية وغيرها. ونضع أمام أبنائنا قدوة هزيلة في المدرسة والمجتمع.

تلك أبرز الأسباب التي هدمت صرح اللغة الفصحى، قد بسطناها في شيء من الإيجاز، على أمل نعرض لها بالعلاج العملي في مقالة أخرى إن شاء الله.

ونحن، إذ نعد أنفسنا لذلك، نهيب بالعلماء والأدباء أن يشاركونا في تشخيص هذا الداء، ووضع العلاج الناجح له. لعلنا نعيد إلى لغة القرآن إشراقها وسلطانها في العالم خاصة، والمجتمع الإنساني عامة.



المرأة في شعر أمير الشعراء أحمد شوقي

بقلم:
شهيرة مراد

في منتصف الساعة الرابعة صباحاً من يوم الخميس ١٣ تشرين الثاني من عام ١٩٣٢ انطفأ المصباحُ المنيرُ الذي ملأ الآفاق نوراً والدنيا بهجةً وسروراً، مات الشاعرُ الكبيرُ أميرُ الشعراء وشاعرُ الأمراء أحمد شوقي تاركاً للأمة العربيةِ وحضارتها الأدبية السابقة ميراثاً رائعاً وثراً وتاركاً للأجيال المقبلة تاريخاً صادقاً ودقيقاً للأحداث الأليمةَ والحَرجة التي عاشتها الأمةُ العربيةُ في أحلك الظروفَ وأصعب الحالات، أرّخها شاعرُنا الكبيرُ منذ ولادته عام ١٨٦٨ وحتى وفاته ١٩٣٢ بشعرٍ تخطّى العالمية في بحرِ الموضوعات التي خاضَها، لم يتركْ بلداً عربياً إلاّ وشاركهَ بشعره أفراحَه وأتراحَه ولم يترك حادثةً إلاّ وأرّخها بشعرٍ أعادَ إلى الأذهان شعرَ الفحول من شعراء العربية.

وَسَطَ هذه العواملِ السياسية والاجتماعية عاش شاعرُنا أحمد شوقي فقد ولد بباب الخديوي إسماعيل وشبَّ في جواره ونشأ في حماه فكان طبيعياً أن تتأثر نفسُه في أول حياته الشعرية بالبيئة السياسية والاجتماعية والفكرية التي عاشها.

وصفهُ الكاتبِ أحمد زكي باشا بأنه كان نحيلاً نحيفاً هزيلاً إلاّ أنه كان وسيمَ الطلعة بعيونٍ متألقة ولكنها متنقلةً فإذا نظر إلى الأرض دقيقةً فللسماء منه دقائقُ متمادية..

جدتهُ ذاتَ الأصول التركيةِ كانت لها صلاتٌ وثيقةٌ بالقصر فقد زارت الجدةُ الخديوي إسماعيلَ ومعها حفيدُها أحمد شوقي وهو طفل يكاد يدبُّ على الأرض وفي عينية حركات لا تهدأ يُمنةً ويُسرةً فتألم الخديوي وحاول كتجربةٍ أن ينثرَ له على الأرض بعضَ القطع الذهبية فما كان من الطفلِ إلاّ أن ثبَّت نظره إلى الأرضِ وجمعَ تلك القطعَ الذهبية وخفّت حركةُ عينيه فقال الخديوي لجدته كرري له هذه التجربة لعله يُشفى من هذا المرضِ فقال له: هذا دواءٌ لا يوجد إلاّ في صيدليتكَ يا مولاي.

لم يكن يتوقعِ أحدٌ أن يُصبحَ هذا الطفلُ المريض بعينيه النحيل بقده شاعرَ مصرَ وشاعرَ العروبةِ والإسلام بل شاعراً عالمياً تُرجمت أكثرُ

قصائدهُ إلى اللغاتِ الحية ورواها وحفِظَها الكثيرون.

يقولُ مصطفى صادق الرافعي في حفل تأبينه: إنّ هذا الشاعر العظيمَ كان هديةَ الخديوي إسماعيل والخديوي توفيق لمصرَ كالدلتا بين فرعي النيل.

لذلك كان يقال دائماً أن سعودَ الدنيا وحُسنَ حظها خدمتا شوقي منذ نشأته إلى وفاته، فقد تفرّغ لنظم القوافي خمساً وأربعين سنةً قضاها في التنقل والسفر والجري وراءَ كلِ جديد وطريف وهو في ظاهرِ الأمر طليق الفكرِ موفورُ الرزق سعيدٌ في الأسرةِ والولد.

عاش شوقي يغرفُ من معينِ نبعين مميزين فكان مثالاً للثقافة التقليدية عبَّها من الشعراءِ الفحولِ في العصرين الأموي والعباسي كالمتنبي وابن الرومي والبحتري والمعري والشريف الرضي وأبي نواس، وكان مثالاً رائعاً للثقافة المتمثلة في عصره بتلك النهضة الأدبية والشعرية وبروز أسماء لامعة في الشعر العربي والأجنبي، فكان شوقي محصّلةَ ثروة شعرية عارمة وظّفها في شعره فغدا ديوانه بأجزائه الأربعة بحراً يعبُّ منه الشعراء في كافةِ المجلات التقليدية والعصرية، وكان بحق صورةً صادقةً وواقعيةً عن كل الأحداث السياسية والاجتماعيةِ والثقافية التي سادت في عصرِه فكانَ شعرهُ رصيداً لنهضة أدبية عربية بقيت جذورُها تتنامى حتى يومنا هذا.

برزتْ عظمةُ شاعرنا وعبقريتهُ عندما بايعته الأمةُ العربية قاطبةً إمارةَ الشعرِ العربي في ذلك المحفلِ الملكي مما لم يسبقْ مثلُه لشاعر قبله قط، ففي المهرجان الذي أُقيم لشوقي في الأوبرا الملكية عام ١٩٧٢ بايعه الشاعرُ المبدعُ حافظ إبراهيم وبلسانِ الأمة العربية في قصيدة طويلة

أميرَ القوافي قد أتيت مبايعاً
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

برعَ في المسرح وأهدى المكتبةَ العربيةَ مسرحياتٍ تاريخيةً واجتماعيةً كان لها تأثيرٌ واسعٌ وجارفٌ في الحياة العربية اليومية، ولكن ما نحن بصدده الآن وضمن المعركة الأبديةِ الخالدةِ عن المرأة وحقوقها المشروعة ونضالها المرير ومكانها الطبيعي في الحياة وأثرها الفعال في حضارة وتطور الشعوب فقد كان لشاعرنا نضال صادقٍ ومريرٌ وجريءٌ في دورِ المرأة العربية حتى أنه انتقدَ وهُدّد وأسيءَ إليه إلاّ أنه استمرَّ في هذا النضال وكان للمرأة في ديوانه موقعٌ بارزٌ يدل على احترامه وتقديره وحبه لها، فهي ملهمتهُ الوحيدةُ للغزل وبكل أبعاده العذري والعمري وهي المرأةُ الأرستقراطيةُ المدللة المغناج في قصور الخديوي وهي العربيةُ المناضلةُ المكافحةِ تريد أن تأخذ حقوقها الطبيعية كاملةً فهي نصفُ المجتمع وهي الأمُ والزوجة والموظفة المثقفة الواعية شاركها الشاعر في كلِ مرحلةٍ من مراحل نهضتها وكفاحها في سفورها وحجابها وتعليمها وجهلها أعطاها المكانةَ المرموقةَ في المجتمع الوظيفي والسياسي وأبدى رأيه بكل جرأة وصراحة متمنيا لها مسايرة ركب الحضارةِ والتطورِ مهما غلا الثمنُ وارتفعت التضحياتُ كما صورَ المرأةَ المظلومة القابعةَ في سجنها الأزلي لا تستطيع الدفاعَ عن نفسها حيث أن الرجلَ وصيٌّ عليها في تفكيرِها وحياتها فلا يؤخذ رأيُها في زواج أو طلاق ولا تشارك الرجل حياته الاجتماعية واليومية فهي في وادٍ والرجلُ في وادٍ آخر..

قلت أن أحمد شوقي شاعرُ الغزل بلا منازع فقد حملَ قيثارةَ الشعر وهو غلام يافعٌ وعزفَ أنغاماً شجيةً حاكى فيها أعظمَ شعراءِ الغزلِ لذلك كانت أوتارُ قيثارته القديمة في يده تُخرجُ ألحاناً مستجدة في كل موضوعٍ فالمرأة عنده:

أشهى من العودِ المرنّم منطقاً
وألذُ من أوتاره تغريدا

وأوتارُ قيثارته ناطقةٌ حاكية
يكاد إذا غنّى الورى
بقافيةٍ ينطق القافية
وتحكمُ في النفس أوتارُه
على العود ناطقةً حاكية

أعجبهَ من أبي نُواس غزلياتُه الدافقةُ وقد حاكاهــا فقــاربَ أبا نواس فكان غزلهُ يسيلُ رقةً وعذوبــةً إلاّ أنّــه تنزّه عن الإفحاش تنزهاً رائعاً وكــان يستلهمُ دائماً قولَ الأديب الكبير ابن المقفّع حيـنما سـئل: لمَ يقفُ قلمُك بعضَ الأحيان فقال: تزدحمُ المعاني في صدري فيقفُ القلمُ لتحيره.

ســافرَ شــوقي إلى فرنســا وعاش في باريس في عصرِ فيكتور هوجو وفيرلين وموسيه وأراد أن يكــونَ فــي شــعره مــن روحِ بودلير ولامارتين، كما عاش في ظلال السوربون والضفة اليسرى لنهرِ السين وهو الذي كانَ يرى الشاعرَ فيرلين جالساً بقهوة فاشيت غارقاً في بحارِ تأملاته وغزلــه يمرّ به ثلاثة عشرَ ألفَ طالب من جامعة السوربونِ ومدارسها العليا لدى انصرافهم فيحيّونه فرداً فرداً وهو غارقٌ عن تحياتِهم بما هو فيه من ذهولِ العبقرية.

لذلــك تعمــق شاعرُنا في الاطلاع على الشــعرِ الفرنســي وأحــبه وتعلق به ولاقى هوى عميقــاً في نفسه وهو الشاعرُ الممتلئ بالعواطف الجيّاشة والإخلاصِ في الحب والتعلقِ بالمحبوبة.. لذلــك أحــبَ باريس ومنتزهاتِها ومقاهيها وغابةَ بولونيا:

يــا غــابَ بولــونٍ ولــي
ذمــمٌ عــليك ولــي عهــود
زمــنٌ تقضّــى لــلهوى
ولــنا بظــنك هــل يعــود؟
حُــلْم أريــدُ رجوعــه
ورجــوعُ أحلامــي بعيــد

قــلّد الشــعراء الفرنســيين فهو يتمنى كألفريد موسيه معشوقاً لــه في مقتبل العمر خوفاً من أن تتركه النساءُ العاشقات في المستقبل:

وقــلتُ لــه صــبراً فكل أخي هوى
عــلى يــد مــن يهوى غداً سيتوب
وراجعــتُ الرَشــاد عســاي أســلو
فمــا بــالي مــع السُلوان أصبي؟

وقــد نــدبَ شاعرُنا الشبابَ وبيّن حاجةَ الشاعر المكتهل إلى الحب مهما كانت النتائج فها هو يخاطب كموسيه نفسه:

الرشــدُ أجمــلُ ســيرةٍ يــا أحمــدُ
ودُ الغوانــي مــن شــبابكَ أبعــدُ
أئــذا وجــدتَ الغيــدَ ألهــاك الهوى
وإذا وجــدتَ الشــعر عــزّ الأغيــدُ
ومــا عــبثُ الدنيــا وما عبثتْ سُدى
شــبينا وشــبْنا والــزمانُ وليــدُ

وقــلد شعر فيرلين في قصائد رائعة في بــاب النســيب ولجأ إلى العلاج من قسوة الهوى ويكاد شاعرنا يبذّه في هذا المجال:

إذا مــا الكــأسُ لــم تُذهــبْ همومي
فقــد تــبتْ يــد الســاقي وتــبّا
عــلى أنــي أعــفُ مــن احتســاها
وأكــرمَ مــن عــذارى الديــر شُربا
ولــي نفْــس أروّيهــا فــتزكو
كزهــرِ الــوردِ نــدوّه فهــبّا

عــاد شوقي من أوربا في منتصف العقد الــثالث وهــو معبّأً بالعواطفِ الجيّاشة التي ملكت عليه فؤادَه يضاف إليها ذهولُ العبقرية.. عاد بحب الجمــال وحب الوطن وحب الأسرة وحب الصديق وحب المرأة في كل أحوالها وطبقاتها ويقول محمد جمعــة فــي كــتابه مقالات الأدباء في رثاء أحمد شــوقي وفــنه: "لقــد استفاد شوقي من معرفته واطلاعــه على الشعر الفرنسي حيث صارَ شاعراً عالميــاً لم يُقصّر نظره على وطنه بل أضاف إليه الشرقَ والغربَ فنظمَ قصائدَ رائعة في كل موضوعِ داخلَ وطنه وخارجه"

كان يدعي أحمد شوقي أن غزله من باب الحــب الأفلاطوني ليبعد عنه عتب الزوج والأهل

والأصدقاء والمحبين إلاّ أنه وقع في إسار الحب وأفصح عنه بالكثير من القصائد الغزلية الرقيقة التي جارى فيها الشعراء العذريين والعمريين كما ذكرت وكان السباق إلى وصف لواعج الهوى ومكنوناته بصورة شفافة تكاد تخترق قلوب العاشقين كلهم..

أليست قصيدته الرائعة - خدعوها - والتي نظمها في أول شبابه وسنه يومئذ اثنان وثلاثون عاماً خير شاهد على أنه قد يكون أحب وأجاد وصف الحب بكل دقة وتفصيل إلى درجة أن برزت له فيها بعض الشطحات الغزلية وكانت فضحاً لعواطفه المكبوتة:

خدعوها بقولهم حسناء
والغواني يغرهنّ الثناء
أتراها تناست أسمي لما
كثرت في غرامها الأسماء

ويصور فيها قصة الحب بشكل متلاحق ينطوي تحته كل المراحل النفسية التي يتعرض لها المحبوبان للوصول إلى نهاية هذه العلاقة الغرامية:

نظرة فابتسامة فسلام
فكلام فموعد فلقاء

وقد تعيش تلك العلاقة أو تموت فتترك في نفس الشاعر اللوعة والأسى والحزن

ففراق يكون فيه دواء
أو فراق يكون فيه الداء

ويحاول أن يحبس عواطفه بعض الشيء ويكتمها في صدره من أثر الشوق فيدعي :

يوم كنا ولا تسل كيف كنا
نتهادى من الهوى ما نشاء
وعلينا من العفاف رقيب
تعبت في مراسه الأهواء

ومن الملفت للنظر أن هذه القصيدة كانت تقليدية النهج فهي في الأصل في مدح الخديوي توفيق لذلك طلب القصر من الجريدة الرسمية أن يسقط الغزل وينشر مدح الخديوي فقط ويقول أحد النقاد وهو الشيخ عبد الكريم سلمان لو أسقطت الجريدة المدح ونشرت الغزل لكان أجمل وأقوى.

ومن تتبع كل قصائده الغزلية الكثيرة والتي أفرد لها الشاعر في الديوان باباً خاصاً باسم باب النسيب لرأينا أننا أمام شاعر عاشق كابد لوعة الحب واكتوى بناره.. وهذا يتناقض مع حياته الأسرية فقد عرف عنه حبه لزوجه وأولاده وأنه لم يتعلق بامرأة غير زوجته فهل نقول والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون، أم نقول أنه أحب وفلسف الحب والجمال فإن جمال الحبيب حسب رأيه ليس شيئاً إلاّ المعاني التي هي وفي وهم محبه والمبالغة دائماً تكون من الخيال والوهم وهاتان ميزتان لا تنضبان أبداً:

روّعوه فتولى مغضباً
أعلمتم كيف ترتاع الظبا
خلقت لاهيةً ناعمةً
ربما روعها مرّ الصبا
لو رأونا والهوى ثالثنا
والدجى يرخي علينا الحجبا
في جوار النيل في ذمته
نذكر الصبح بأن لا يقربا

ألم يكن عاشقاً حقيقياً حينما وصف الهوى بأنه قدر الإنسان وأنه الآمر الناهي وأنه السلطان الذي لا يغلب يأخذ بإسار القلوب فيتحكم بها:

لك أن تلوم ولي من الأعذار
إن الهوى قدر من الأقدار
أمري وأمرك في الهوى بيدا الهوى
لو أنه بيدي فككت إساري

مـــثل الحيـاة تحـب في عهد الصبا

مـــثل الـــرياض تحـــب فـــي آذار

عارضـــتهن وبيـــن قلـــبي والهـــوى

أمـــر أحـــاول كـــتمه وأداري

لـــم يـــترك باباً في مجال الحب إلاّ طرقه أحب الحياة وأحب الجمال وأذاب روحه وكيانه في هـذا الحـب حتى غدت قصائده الغزلية مادةً ثرّة لعـباقرة المغنين والمغنيات رددها الناس في بلاد الشـرق كله وغدت ظاهرةً فريدةً منتشرةً في كل مكـان إن جيلاً بكامله حفظ تلك القصائد لما فيها مـن رِقـة وعذوبـة وموسيقا تنساب مع النفس انسياب النسيم العليل في ليلة قارظة..

غـني قصائده محمد عبد الوهاب وسيدة الغناء العربي أم كلثوم وكبار المغنين مَنْ مِن جيلنا لا يعرف تلك القصائد الغزلية في المرأة:

ردت الـــروح عـــلى المضـــنى معـــك

أحســـن الأيـــام يـــوم أرجعـــك

مـــر مـــن بعـــدك مـــا روعـــني

أيـــرى يـــا حـــلو بعـــدي روّعـــك

أو قوله :

مقاديـــر مـــن جفـــنيك حولـــن حاليا

قذفـــت الهوى من بعد ما كنت خاليا

أو قوله:

يـــا جـــارة الـــوادي طـــربت وعادني

مـــا يشـــبه الأحـــلام مـــن دنيـــاك

أو قوله :

مضـــــناك جفـــــاه ومـــــرقده

وبكـــــاه ورحـــــم عـــــوده

حيـــــران القـــــلب معذبـــــه

مقـــــروح الجفـــــن مســـــهده

أو قوله :

عـــلموه كيـــف يجفـــوا فجفـــا

ظـــالم لاقيـــت مـــنه مـــا كـــفى

مســـرف فـــي هجـــره مـــا ينـــتهي

أتـــــراهم عـــــلموه الســـــرفا

أو قوله:

يـــا ناعمـــاً رقـــدت جفونـــه

مضـــناك لا تهـــدأ جفونـــه

مـــا العمـــر إلاّ ليـــلة

كـــان الصـــباح لهـــا جبيـــنه

وغيـره كـثير لا يمكن حصره في هذه العجالة..

تأثـر أحمـد شوقي بالبيئة التي عاشها وبخاصة في أول حياته فقد كان لسان القصر وكان الأثيـر لـدى الخديـوي توفيق وكان خير مصور صادق للمرأة الأرستقراطية في ذلك الزمن فهي إما مصرية أو مستوردة من تركيا أو اليونان وغيرها وهؤلاء كن يعشن حياة ترف ولهو وفراغ وتفاهة لذلك كانت قصائده هذه معبرة عن هذا الوسط وهو لا يستطيع إلاّ أن يكون كذلك فهو:

شـــاعر الأميـــر ومـــا

بالقـــليل ذا الـــلقب

لذلك سمي شاعر الشباب والمرح وشاعر الحيـاة القويـة المـتدفقة بفيـض المشـاعر والأحاسيس، وصف ليلة راقصة أقيمت في قصر عابدين فنقلها بكل دقة وعمق وواقعية عما دار في تلك الليلة فالمرأة هي سيدة الموقف وهي المدللة المغناج الأنيقة إلى حد البذخ في لباسها ومشيتها وإبراز كل مفاتنها لتكون محط أنظار المعجبين من علية القوم.

لعبت الخمرة برؤوس الحاضرين ودعتهم إلى الهرج والمرج:

حـــف كأســـها الحــبيب

فهـــي فضــــة ذهـــب

أو دوائـــــــر درر

مـــائج بهـــا لـــبب

أو فـــم الحــبيب جـــلا

عـــن جمانـــه النشـــب

والمــرأة ترفل بالثياب البراقة لتبرز كل مفاتنها:

الحريــــــر ملبســـــها

والـــــلجين والذهـــب

والقصـــــور مســــرحها

لا الــــرمال والعشـــب

والمــرأة تشــارك بكل أحاسيسها الرجل أثناء الرقص:

الـــــرؤوس مائـــــلة

فـــي الصـــدور تحـــتجب

والــنحـــــور قائمـــة

قـــاعد بهــــا الوصـــب

والــــنهود هـــــامدة

والخـــدود تلـــتهب

والخصــــور واهيـــة

بالبـــنان تـــنجذب

وقصـــيدة أرستقراطية أخرى صور فيها أحمد شوقي ومن خلال حفلة راقصة أقيمت بسراي عــابدين عام ١٩٠٤ المرأة التي كان لها حضور مميــز فــي الشــكل والمظهــر والأناقــة والرقة والشفافية وكأني بشاعرنا أراه يقف متفرجاً يراقب حلــبة الــرقص بشكل دقيق وواقعي وجريء كل حــركة ولفــتة وهمســة بين كل الراقصين مطلقاً لخياله العنان دون رقابة أو حذر:

مــــال واحـــتجب

وادعى الغضـــــب

ليـــــت هاجـــري

يشـــــرح الســـبب

عتـــــبه رضـــى

ليـــــته عـــتب

عـــــلّ بينــــنا

واشــــياً كــــذب

أو مفـــــــندا

يخـــــلق الــــريب

وهــذه المرأة الأرستقراطية جميلةُ تشف عن جسم رقيق ناعم فتتصنع الدلال وتتحرك بخفة ورشاقة دون أن تنسى الابتسامة الرقيقة الناعمة، توزع النظرات والتلفتات وبالحركات بشكل مدروس ومخطط:

بيــــن عيـــــنيه

والمهـــــا نســــب

مـــــاء خــــده

شـــف عـــن لهـــب

قــــر نهـــــده

عطفـــــة اضـــطرب

خصــــره هـــــبا

صـــــدره صــــبب

يـــــركض الــــنهى

مشــــيه الخـــبب

وهـــي قصـــيدة طويلة صور فيها بذكائه وفطنـــته كل ما دار في هذه الليلة الصاخبة ملمحاً بشــكل رمزي تفاهة هؤلاء الناس وبخاصة المرأة التي لا يهمها من الحياة إلاّ التمتع بلباسها وزينتها وملذاتها.

نفي الشاعر أحمد شوقي إلى الأندلس في إسبانيا لمواقفه الوطنية وذاق في المنفى لوعة الفراق والوحدة واليأس، عاد بعد ذلك إلى وطنه الحبيب برؤية عميقة تنظر إلى مستقبل المرأة المصرية بخاصة والعربية بعامة، عاد وهو يحمل في قلبه الحب للوطن والأهل والحب للتطور والسير بركب الحضارة، عاد وهو يحمل لواء الدفاع عن المرأة بكل ما لديه من السلطة القلمية والجرأة النفسية فقد ألقى بعد عودته قصيدة رائعة في جمع حافل من السيدات المصريات بحديقة مسرح الأزبكية تحت عنوان "مصر تجدد مجدها بنسائها المتجددات" :

قم حيّ هذي النيرات
حيّ الحسان الخيرات
واخفض جبينك هيبةً
للخرد المتخفرات
زين المقاصر والجمال
وزين محراب الصلاة

ولم ينسى الشاعر أن يبرز موقف رسولنا العظيم (ص) من النساء فقد أعطاهن الدين الإسلامي كل حقوقهن وكن محترمات لهن موقع مميز وبارز من الدعوة الإسلامية، فقد كافحن وضحين في سبيل نشر تلك الدعوة إلى جانب تمتعهن وتسلحهن بالدين والعلم والأدب والسياسة والتجارة وغيرها:

هذا رسول الله لم
ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعةً
لنسائه المتفقهات
رضن التجارة والسيا
سة والشؤون الأخريات

ويذكر بأسماء صحابيات اللواتي كان لهن المكانة والأثر في نشر الدعوة الإسلامية:

كانت سكينة تملأ الدنـ
ـيا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسرت
آي الكتاب البينات

ولا ينسى أثرهن في حضارة الإسلام:

وحضارة الإسلام تنـ
ـطق عن مكان المسلمات
بغداد دار العالمـ
ـات ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمية
أم الجواري النابغات
ورياض الأندلس نميـ
ـن الهاتفات الشاعرات

وقف شاعرنا متحدياً المتشدقين والحاقدين والقائلين الويل والثبور وعظائم الأمور فيما لو سارت المرأة العربية بركاب المرأة الغربية دون وعي أو إدراك أن المرأة العربية مؤمنة واعية لا تأخذ بأساليب الحضارة الغربية على علاتها بل توازي وتوازن بين أخلاقها وتقاليدها الشرقية وتطلعاتها المستقبلية فيخاطب شوقي الرجل رافعاً صوته بجرأة وقوة:

وإذا خطبت فلا تكن
خطباً على مصر الفتاة
أذكر لها اليابان لا
أمم الهوى المتهتكات
ماذا لقيت من الحضا
رة يا أخيّ الترهات

كما يدعو هؤلاء الداعين إلى عدم تحرر المرأة بالعودة الصادقة إلى تاريخ العرب والمسلمين وأن يأخذ بما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف وأن يكون منطقي التفكير واسع

الإطـلاع صادق الهدف والمصير عادلاً في حكمة ونظرته:

خـــذ بالكـــتاب وبـــالحديـ
ـــث وســـيرة الســـلف الـــثقاة
وارجـــع إلى ســـنن الخـــليـ
ـــقة واتـــبع نظـــم الحيـــاة

ولم يكتف أحمد شوقي بذلك بل أبرز دور المرأة المصرية في استقلال وادي النيل وتأثيرها الواضـح فـي النضـال من أجل جلاء المستعمر الإنكليزي عن أرض الوطن:

مصـــر تجـــدد نفســـها
بنســـائها المـــتجددات
لمـــا حضـــنّ لـــنا القضـــية
كـــن خيـــر الحاضـــنات

ولـم يـنس شـاعرنا مكانة المرأة في المجـتمع والأسـرة وبخاصـة في تربية أبنائها وجيلها على الفضائل والبطولات:

أقبـــلن يبـــنين المـــآ
ثـــر للـــنجاح موفقـــات
ينفـــثن فـــي الفـــتيان مـــن
روح الشـــجاعة والثـــبات

دعـي الشاعر إلى أحد الحفلات الخيرية النسائية التي انعقدت بدار التمثيل العربي وبرئاسة رائـدة المرأة العربية هدى شعراوي وكل النساء العربيات من الأقطار الأخرى فرأى المرأة العربية وبكل إمكاناتها الإنسانية الرائعة كما لمس حماسها ونضالها وطموحاتها في رفع الحيف عنها ودفعها إلى معـركة التطور والتعليم.. فوقف شاعرنا بكل قوتـه طالـباً مـنها التحرر ومذكراً إياها بالكتاب والرواد الأوائل الذين دعوا إلى تحرير المرأة رغم ما نالوا من تنكيل وإساءة.

وقـف فـي القصـيدة التي ألقاها بهذه المناسـبة موقـف المتحدي في شرح واقع المرأة العربية والمسلمة في كل الأقطار العربية بكل جرأة وصراحة وصدق:

قـــل لـــلرجال طـــغى الأســـير
طيـــر الحجـــال مـــتى يطيـــر
أوهى جـــناحيه الحديـــد
وحـــزّ ســـاقيه الحريـــر

دعـا المـرأة (وهذا رأي الشاعر ودعاة تحرر المرأة) أن ترفع الحجاب الكثيف وتخرج من سجن بيتها وسجن جهلها وسجن تسلط الرجل عليها لتمارس دورها الذي وهبها الله وهو الدور الديني والأخلاقي والاجتماعي والعلمي والأسري:

ذهـــب الحجـــاب بصـــبره
وأطـــال حيـــرته الســـفور
والســـجن فـــي الأكـــواخ أو
ســـجن يقـــال لـــه القصـــور
حـــرية خـــلق الإنـــا
ث لهـــا كمـــا خـــلق الذكـــور

ثم يخاطب الشاعر الأديب قاسم أمين أحد دعـاة تحـرر المرأة العربية داعياً إياه إلى رؤية المـرأة وقد أخذت تسير بركب الحضارة وتنفض عنها غبار التخلف والجهل وتدافع بكل قواها عن حقوقها المهضومة

يـــا قاســـم انظـــر كيـــف ســـا
ر الفكـــر وانـــتقل الشـــعور

جـــابت قضــــيتك الـــبلا
د كأنهـــا مــــثلُ يســــير
فـــي ذمـــة الفضـــلى هـــدى
جيــــل إلى هـــادٍ فقيـــر
أقبــــلن يســـألن الحضــــارة
مـــا يفيـــد ومـــا يضـــير

ولا ينسـى شاعرنا أن يدافع عن الأديب قاسـم أمين مذكراً إياه بما لاقاه من نقد وتجريح حين دعا في كتابه "تحرير المرأة" إلى تحريرها من الجهل والمرض والتسلط:

مـــا فـــي كـــتابك طفــــرة
تـــنعى عــــليك ولا غـــرور
هذبـــــته حـــــتى اســــتقا
مــت مــن خلائقــك السـطور
ووضـــــعته وعـــــلمت أنّ
حســـاب واضــــعه عســــير

ثـم يذكّـر بصاحبه شيخ الأزهر ومفتي الديـار المصـرية محمـد عبدو الذي دافع بجرأة وصراحة عن المرأة العربية وتحررها:

قـــل لـــي بعيشـــك أيـــن أنـــت
وأيــــن صـــاحبك الكــــبير
عصــــر العـــباقرة الـــنجــ
ـــوم بـــنوره تمشـــي العصـــور

كان أحمد شوقي في حربه القلمية لا يمل ولا يكـل مـن تـلك الدعوة شعوراً منه بالحاجة الماسة إلى أن تأخذ المرأة العربية المسلمة المكانة اللائقة بها فحضارة الدول و قدمها وتطورها تتقدم بتقدم وتطور المرأة وفي قصيدته الرائعة التي رثى فيها داعية التحرر قاسم أمين قال له:

مـــاذا رأيـــت مـــن الحجـــاب وعسره
فدعوتـــــنا لـــــترفق ويســـــار
رأي بـــدا لـــك لـــم تجـــده مخالفـــاً
مـــا فـــي الكـــتاب وســـنة المخـــتار
جهـــلوا حقيقـــته وحكمـــة حكمــــه
فـــــتجاوزه إلى أذى وضــــرار
إن الحجـــاب ســـماحة ويســــارة
لـــولا وحـــوش في الرجال ضواري

وهــذه إشارة أراد أن يذكرنا بها الشاعر أحمـد شـوقي حينما أساء بعض المشاغبين إلى النســاء فــي إحدى المظاهرات الوطنية فرموهن بالحجـارة وأسـمعوهن كلمات نابية ولولا تدخل بعض العقلاء لحدث مالا يحمد عقباه.

لذلــك دعا في إحدى قصائده إلى احترام المــرأة ورفع الظلم عنها من قبل الرجل دون أن يخشى عواقب هذا الموقف بل دعا أصحاب الأقلام الحرة إلى وقفة شجاعة صادقة وحرب قلمية ترفع الأذى عن كاهل النساء:

ظــلم الــرجال نســاءهم وتعســفوا
هـــل للنســـاء بمصـــر مـــن أنصار
يـــا معشـــر الكـــتاب أيـــن بلاؤكـــم
أيـــن الـــبيان وصـــائب الأفكــــار
أيهمكـــم عـــبث وليـــس يهمكـــم
بـــنيان أخـــلاق بغيـــر جـــدار
عـــلى ضـــيم الحرائـــر بيـــنكم
نـــبأ يـــثير ضـــمائر الأحــــرار

وهــذه إشــارة أخرى إلى أحد المشاكل الاجتماعية المستعصية وهي مشكلة الزواج بأكثر من واحدة:

يـتزوجون عـلى نسـاءٍ تحـتهم
لا صـاحبات بـغى ولا بضـرار
الوالـدات بنيـنهم وبـناتهم
الحائطـات العـرض كالأسـوار

ويبرز تلك المشكلة الأسرية من النواحي الاجتماعية والأخلاقيـة فيعـط مثال هذا الشيخ الطـاعن فـي السن والذي يسعى للزواج من فتاة تصـغره سناً باذلاً المال لأهل الفتاة ومعللاً عمله هذا بالشرع وأحكامه:

المـال حـلل كـل غيـر محـلل
حـتى زواج الشـيب بالأبكـار
مـن كـل ذي سـبعين يكـتم شـيبه
والشـيب فـي فوديـه ضـوء نهار

ويخاطب بقسوة وصلابة أهل الفتاة الذين يقبـلون لبـناتهم أن يكـنّ فريسة سهلة في هذا الخضم الأسود:

وتعلـلت بالشـرع قـلت كذبـته
مـا كـان شـرع الله بالجـزار
مـا زوجـت تـلك الفـتاة وإنمـا
بـبيع الصـبا والحسـن بالديـنار

ويقـف شاعرنا في محصلة تلك الدعوة المستميتة داعياً بصوت عال إلى تعليم الفتاة لتأخذ حقوقهـا بنفسها دون خوف أو تردد ولتبني جيلاً واعياً صحيح العقل والبدن:

وإذا النسـاء نشـأن فـي أميـة
رضـع الـرجال جهالـة وخمـولا

ليـس اليـتيم مـن انـتهى أبواه من
هـمّ الحيـاة وخـلفاه ذليـلا
إن اليـتيم هـو الـذي تـلقى لـه
أمـاً تخـلت أو أبـاً مشـغولا

يمـثل الشـاعر أحمد شوقي هو وروّاد النهضـة الشعرية والأدبية في عصره قلب ونبض الأمـة العـربية وهـي تلملم جراحاتها وتناضل بشراسة لرفع الحيف عنها ولتخرج من ظلمات هذا الواقـع المريـر وبـبعديه السياسي والاجتماعي وبخاصـة واقـع المرأة وما هي عليه من الجهل والقهر والتخلف.

هؤلاء هم الجنود المجهولون الذين كانوا شـعلاً مضيئة أناروا لنا – نحن النساء – دروب العـلم والحرية دون شطط أو مبالغة، كانوا دعاة الإصـلاح الاجـتماعي شعوراً منهم بتردي حالة الأسـرة العـربية التي تخلفت عن ركب الحضارة الحقيقيـة.. كانوا ينتقدون الغلاة والمتشدقين من أعـداء المـرأة العربية الذين يطالبونها أن تبقى حبيسـة بيـتها تعتني بزوجها وأولادها فقط فهي برأيهم قد خُلقت للبيت من المهد إلى اللحد..

لم يقدروا تطلعاتها المستقبلية وحاجاتها ومكانتها في أنها يجب أن تكون دائماً في موضع الـريادة بالنسـبة لحياة الشعوب والدول فهي في نصف المجتمع ينهض بنهوضها ويكبو بكبوتها.

وكـم أتمـنى – نحن النساء – أن نكون دائمـاً عـلى مستوى دورنا في هذه الحياة فندافع عن حقوقنا بكل صلابة وصراحة وأن نساهم بشكل فعّال في بناء جيل يواكب الحضارة وأمة تسعى إلى الـتطور مسـتلهمات خـطى ونهج ديننا وشرقنا وحضارتنا وتاريخنا وأخلاقياتنا التي ورثناها كابر عبر كابر..

محنةُ أمّة

شعر : جابر خيربك

لهيـــبٌ وراء الصـــدر يشـــبو ولا يخـــبو
لـــك الله كـــم فاضـــتْ جـــراحُك يـــا قَـــلْبُ
تمـــرُّ بـــك الذكـــرى فتصـــحو عـــلى الأســـى
وتغفـــو عـــلى الشـــكوى المدامـــع والـــلُّبُّ
وكيـــف تقـــرُّ العيـــن والطـــرف حائـــرٌ
ومـــن حـــرٍّ مـــا تـــلقى تقـــرَّحَت الهُـــدْبُ
ألـــمُّ شـــتاتَ الفكـــر لهفـــان والهـــاً
عـــلى أمـــة بـــاتتْ بأوزارهـــا تكـــبو
صـــبوتُ بهـــا طفـــلاً وشـــبَّ بغربَـــتي
هواهـــا وكـــم عـــانى بغربـــته الصَـــبُّ
تـــنازعها اليـــأسُ المريـــرُ ولفَّهـــا
بـــبحرِ مآســـيها الـــتفجُّعُ والـــنَدْبُ
فضـــاقتْ بهـــا الدنيـــا وفـــرَّق شـــملها
غـــرور الـــليالي والقطيعـــةُ والذنـــبُ
تـــنافر فيهـــا الحـــاكمون جهالـــة
ومـــات الـــتآخي. والـــتراحمُ والحَـــدْبُ
فـــلا واكـــبوا ركْـــبَ الحضـــارات وانـــتهوا
إلى حيـــثُ لا نجـــمٌ يـــلوح ولا قُطْـــبُ
كـــأنَّ أمانيهـــا تـــودع بعضـــها
يمـــزقها فـــي كـــلِّ ســـانحة خَطْـــبُ
فتمســـح فـــي كـــفٍّ نـــوازفَ دمعِهـــا
وتمســـك بالأخـــرى الجـــراحَ الـــتي تـــربوا

فأحداثُهـــا فـــاقت عـــلى كـــلِّ صـــبرِها
وســـاءتْ مـــراعيها وعـــمَّ بهـــا الجَـــدْبُ
ذوت فـــي خضـــم النائـــبات مـــروجُها
ومـــات عـــلى واحاتهـــا الزهـــر والعشـــب
غرائـــرُ نعماهـــا تشـــتتت ســـحرُها
وهاجـــرَ عـــن ريَّـــا خمائِـــلها الخِصْـــبُ
وســـافر عـــن أدواحهـــا الطيـــرُ هاربـــاً
فـــلا الـــدوحُ يغـــريه ولا المـــنهل العَـــذْبُ
ولـــم يـــبقَ إلاّ الذكـــرياتُ تـــلوكُها
طويـــلاً ويشـــكو مـــرَّ آلامِـــه الشـــعب
فمـــن حقـــه أن يـــرفَع الصـــوتَ عَـــلَّه
يمـــرُّ عـــلى آذانِ حكامِـــه الصـــخْبُ

* * *

فيـــا أمـــةً ضـــاعتْ بأخطـــاء أهـــلها
وكـــان لهـــا فـــي كـــلِّ حاضـــرة ركْـــبُ
ســـقى الله بالخيـــر المـــباركُ عصـــرَها
ولا فاتهـــا العطـــرُ الـــزكيُّ ولا الســـكْبُ
لهـــا فـــي ضـــمير الدهـــر مجـــدُ مـــنوَّر
بأفلاكِهـــا تخـــبو الشـــموسُ ولا يخـــبو
إلى أرضـــها رسْـــلُ الســـماءِ توافـــدوا
وكـــانتْ هـــي الأغـــلى . وكـــرَّمها الـــرَّبُ
فمـــدّتْ إلى أقصـــى العوالـــم ديـــنَها
وأروعُ مـــا فيـــه الســـماحةُ والحُـــب
وســـادتْ عـــلى اســـم الله بـــالعدل والـــتقى
ومـــا ردَّ نشـــرَ الحـــقِّ بعـــدٌ ولا قـــرب
قـــروناً بأجفـــان الـــزمان تـــربعتْ
وضـــاقتْ بمـــا خطَّـــتْ نوابغُهـــا الكـــتب
وفرســـانُها فـــاتوا الـــنجوم وتـــابعوا
وكـــانت تـــرشُّ الـــدربَ بالـــرحمة الســـحْبُ

رأتْ فيهمُ الإيثارَ والحبَّ والرضى
وفوق بروج المجد – دون الورى – شبّوا
فكيف بحق الله ضاعتْ وأقفرَتْ
معالمُها واسودَّ من حُزنِه التربُ
وغاضتْ مغانيها وهاجر حسنُها
فلا طيرُها شاد ولا غصنُها رطْبُ
أليس الذي أودى بها من حُماتِها
ففرّقها جهلٌ وقسَّمها لُعبُ
كفيلاً بأن يقضي على خير ما بنتْ
ولا عاد يشفيها الطبيبُ ولا الطبُّ

* * *

شكونا وشكوى الشعب تنهار دونها
بروج الثريا والكواكب والشُهْبُ
ويحيا وراء الصمت لونٌ من الأسى
تضيقُ به الدنيا إذا انكشفتْ حُجْبُ
فمن بعد ما كنا ملوكاً وسادةً
على الدهر. باتتْ كلُّ أسيافنا تنبوا
على عتبات اللوم ضاعتْ حقوقُنا
وفرَّق مسرانا التناحرُ والعَتْبُ
وعفَّرَ وجه القدس وغدٌ وقاتلٌ
وديس بها الأقصى . ومحرابُه نَهْبُ
وأطلق فيها فيلقاً من وحوشهُ
فلا هالها خوفٌ ولا شلَّها رَعْبُ
وراحت تكيل الصاعَ صاعين كلما
تطاول علجٌ في حقيقته ضَبُّ
تجنتْ على أرض الرسالاتَ حفنةٌ
وهم نفرٌ بادوا . وعن شرقِنا غُربُ
فتحنا لهم رُغم الجراح قلوبنا
فما نالنا ربحٌ ولا نالنا كسْبُ
تمادوا بألوان التسلط والأذى
فضجتْ بشكوانا الأباطحُ والهَضْبُ

ولـــولا بقايـــا عـــزةٍ وانتفاضـــة
عـــلى الظـــلم والعـــدوان فـــتيانها هَـــبّوا
لمـــا ظـــلَّ فـــي كـــفِّ العـــروبة صـــارمٌ
ولا فـــارسٌ حـــنتْ لـــه الضـــمّرُ الصُـــهْبُ
ففـــي عـــرفها أن الشـــهادةَ مذهـــبٌ
فـــإنْ مـــات ســـربٌ هـــب مـــن غيـــلها سِـــربُ
ولا نـــال مـــن إيمانهـــا الفقـــرُ والـــردى
فإيمانُهـــا بـــالله - رغـــم الأســـى - صـــلبُ

* * *

غفونـــا عـــلى البـــلوى طويـــلاً وشـــدَّنا
عـــلى الصـــمت والتســـليم ســـادتُنا الـــنُجْبُ
أصـــمّوا عـــن الأرض الســـليبة ســـمعَهم
وضـــيَّعهمْ شـــرقُ المصـــالح والغـــربُ
ومـــا قدمـــوا إلاّ الخطابـــةَ واكـــتفوا
وفـــي مســـمع الدنيـــا بيانـــاتِهم صـــبُّوا
فهـــل عوَّضـــوا فيهـــا صـــغاراً تيـــتّموا
وهـــل عـــاد ربُّ الـــبيتِ أم ردَّه الشـــجْبُ
تقطـــع حـــبلُ الـــودِّ قـــرْناً وليـــته
يعـــود لشـــعبٍ هـــدَّهُ القـــتلُ والصـــلْبُ
كـــأني بمـــن ذاق التشـــرُّدَ والـــردى
يقـــول مـــلولاً. كـــلُّ أقوالِهـــم كِـــذْبُ
إذا مـــا دعـــاهم واجـــب الأرض هـــرولوا
يقـــبل تـــربا فـــي فواجعهـــا تـــربُ
ولـــبوّا بجلاَّهـــا أليـــمَ ندائِهـــا
ويـــا ليـــتهم ظـــنّوا نيامـــاً ومـــا لـــبُّوا
كفاهـــا وعـــوداً واجـــتماعات قمـــة
يطيـــبُ بهـــا لغـــوُ الأحـــاديثِ والسَّـــبُ
تغـــنَّوا بـــألوانِ الشـــعارات أعصـــراً
وبـــالوحدةِ الكـــبرى . ومـــن جامهـــا عَـــبّوا
ولكـــنهمْ بـــاعوا أصـــالةَ أمـــة
فـــلا ضـــمهم فـــي دفـــع أخطارهـــا دربُ

أشادوا القصورَ الفيحَ واستمتعوا بها
يقطعهُم ليلُ الغواية والشربُ
وما ردَّهمْ فقرُ الشعوبِ وجوعُها
عن الغيِّ واستشرى بأموالها السلبُ
وغنَّى على ليلى أميرٌ وعاهلٌ
وبارك ما غنَّى نداماه والصَحْبُ
نقولُ لحكّامِ الشعوب تذكروا
بأن ركوبَ المجد ميدانه صَعْبُ
أفيقوا من النوم العميقِ فكم شكتْ
رُقادَ حماةِ الدارِ أطفالُنا الزُغْبُ
حبوتمْ طويلاً خلف من داس حقَنا
ومازال فيكم مَنْ يلوذ ومَنْ يحبو
تظنون أن السلمَ دانتْ قطوفُهُ
ولكنَّ هذا السلمَ في شرعهم حَرْبُ
فكم جانبوه واستمرت ذئابُهم
تضيقُ بها الأغوارُ والبيدُ والكُثْبُ
ومَن سالمَ الذئبَ الخؤون فإنه
على غفلةٍ منه سيقتله الذئبُ
تناسوا على الجلّى الخلافات واسمعوا
نداءً الثكالى غالها الرجمُ والضربُ
ولا تبخلوا بالتضحيات فإننا
إلى وردِها في ردِّ ما سلبوا نصبوا
فلنْ يرحم التاريخ مَنْ باع أرضهُ
ولا ضمّه – بعد الردى – صدرُه الرحبُ
إذا لم نكنْ بالساح شَعباً وقادةً
فلا ارتدع الغازي ولا الماكر الخِبُ
وإنَّ الأسى الآتي أشدُّ مضاضةً
علينا إذا نامتْ عن الوحدةِ العربُ

٢٠٠١

منير بعلبكي

بين الترجمة والعمل المعجمي والموسوعي

١٩١٨ - ١٩٩٩م

١٣٣٧ - ١٤٢٠هـ



منير بعلبكي مترجم، ومعجمي، وموسوعي، ولغوي، وصحفي، وناشر لبناني معروف، وأحد مؤسسي "دار العلم للملايين" في بيروت عام ١٩٤٥.

ولد منير عبد الحفيظ بعلبكي في بيروت عام ١٩١٨ لأب كان يعمل خياطاً في سوق سيّور (سوق الخياطين) من أسرة بيروتية مرموقة، جاء أحد أجدادها من بعلبك إلى بيروت، فاشتهر باسم البعلبكي..

تلقى دراسته الابتدائية في مدارس جمعية المقاصد الإسلامية في بيروت، ثم انتقل إلى القسم الإستعدادي في الجامعة الأميركية، وبعد أن نال الشهادة الثانوية التحق بالجامعة الأميركية، وتخرج منها عام ١٩٣٨ بشهادة بكلوريوس علوم في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي، وقد تولى أثناء دراسته فيها تحرير مجلة "العروة الوثقى" التي أسسها طلاب الجامعة الأميركية، وكان من أساتذته في الجامعة أنيس الخوري المقدسي، وجبرائيل جبور، وقسطنطين زريق..

ونظراً لتفوقه، أوكل إليه تدريس الأدب العربي والتاريخ الإسلامي في القسم الاستعدادي في الجامعة الأميركية، حيث مكث عامين، وأشرف في الوقت نفسه على الجمعية العربية الخطابية في ذلك القسم، وهي جمعية كانت تعنى بشؤون الخطابة وتدريب الطلاب عليها..

وفي عام ١٩٤٠ دعاه ساطع الحصري (١٨٨٠- ١٩٧٠) مدير المعارف في العراق للتدريس في دار المعلمين الإبتدائيين وكلية الملك فيصل في الكاظمية ببغداد، ولما قامت انتفاضة الزعيم الوطني العراقي رشيد عالي الكيلاني ضد الإنكليز عام ١٩٤١، حمل السلاح مع الطلاب، وقصد مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني الذي كان يقيم آنذاك في بغداد، وعرض عليه رغبته في التطوع بالجيش، وحين قمعت الانتفاضة، غادر بغداد مع عدد من المدرسين اللبنانيين عائداً إلى بيروت..

حين لم يوفق في إيجاد عمل في بيروت، قصد دمشق وعمل مدرساً في "الكلية العلمية الوطنية" لصاحبها أحمد منيف العائدي ثلاث سنوات، عاد بعدها إلى بيروت، وراح يدرّس في كلية المقاصد الإسلامية، وكلية البنات الأهلية معاً، كما اضطر إلى التدريس في مدرسة أحمد العيتاني الليلية، ليستطيع الوقوف في وجه الضغوطات المادية التي كانت تواجهه.

في عام ١٩٤٥ ترك التدريس نهائياً واختار أن يمتهن نشر الكتب، فأسس مع أخويه عفيف ومحمد وزميله بهيج عثمان - الذي كان يومئذ سكرتيراً لتحرير مجلة الأديب لصاحبها ألبير أديب (١٩-٨- ١٩٨٥) - "دار العلم للملايين" التي غدت أهم وأكبر دور النشر العربية وأرقاها وأوسعها انتشاراً، كما أنشأ عام ١٩٥٣ مجلة "الآداب" بالاشتراك مع الدكتور سهيل إدريس والأستاذ بهيج عثمان، لكن سهيل إدريس لم يلبث أن استقل بها وحده عام ١٩٥٦. (١)

انتخب عام ١٩٨٢ عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة، وممثلاً للبنان فيه، وقد حضر جميع مؤتمراته السنوية، وأسهم في تعريب الكثير من المفردات والمصطلحات الأجنبية التي أخذت طريقها إلى التداول فيما بعد، دون أن يعرف أحد أن واضعها هو الأستاذ منير بعلبكي.

نال منير بعلبكي عدة جوائز منها: جائزة جمعية أصدقاء الكتاب في لبنان، وجائزة سعيد عقل، وجائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، وجائزة الناشرين العرب، وشارك في عدد من الهيئات الثقافية والجمعيات الفكرية منها اتحاد الكتاب اللبنانيين، وجمعية أصدقاء الكتاب وغيرهما..

كانت حياته حافلة بالمواقف الوطنية الحازمة، والثوابت القومية الصائبة، والإسهامات العلمية المتميزة، وقد دافع عن العرب والعروبة، وفضح أضاليل الصهيونية ومخططاتها، وبذل أقصى التضحيات في سبيل المبدأ والحرية والكرامة، وقد ظل دائباً على العمل، يعمل يومياً اثنتي عشرة ساعة بلا انقطاع، حتى صرعه المرض، فعاش في

غيبوبة تامة في مستشفى الجامعة الأميركية سنة وسبعة أشهر، إلى أن توفي في التاسع عشر من حزيران عام ١٩٩٩ عن واحد وثمانين عاماً.

آثاره

بعد أن عمل منير بعلبكي عشرين سنة في الترجمة، اتجه إلى التأليف المعجمي والموسوعي فأصدر عام ١٩٦٧ معجم "المورد" (إنكليزي – عربي) وقد عمل فيه سبع سنوات متواصلة، وطبع حتى سنة ٢٠٠١ خمساً وثلاثين طبعة، ثم اصدر بعده "موسوعة المورد" التي بدأ العمل فيها عام ١٩٧٠ وجاءت في أحد عشر مجلداً، واستغرق في تأليفها ثلاثة عشر عاماً، واصلاً الليل بالنهار والنهار بالليل، وهي موسوعة عامة تضم مختلف المعارف الإنسانية، وتعد وسطاً بين الموسوعات، فلا هي موجزة حتى الإخلال، ولا هي مطولة حتى الإملال، وكانت الغاية منها تطوير معجم المورد وإغناءه وشرح مفرداته العلمية والفنية، والتوسع في تقديم معلومات عن الأعلام والأماكن وغيرها.. ولم يكتفِ بهذه الموسوعة، بل أصدر أيضاً عام ١٩٩٠ موسوعة عربية أخرى في أربعة مجلدات.

أما أهم الأعمال التي ترجمها عن الإنكليزية، وقد بلغت أكثر من مائة كتاب اتسمت كلها بطابع الدقة والضبط والمسؤولية وسمو البيان، حتى عدّه النقاد "شيخ المترجمين العرب في العصر الحديث" فهي: البؤساء لفكتور هيجو في خمسة مجلدات، "قصة تجاربي مع الحقيقة" لغاندي، "الإسلام والعرب" لروم لاندو، "دفاع عن الإسلام" للورا فاغليري، "تاريخ الشعوب الإسلامية" لبركلمان، "حياة محمد" لمولانا محمد علي، "قصة مدينتين" لتشارلز ديكنز، "كوخ العم توم" لهارييت بيتشر ستاو، "المواطن توم بين" لهوارد فاست، "وداعاً للسلاح، الشيخ والبحر، ثلوج كلمنجارو" لأرنست همنغواي، "رواد الفكر الإشتراكي" للبروفسور البريطاني ج.هـ. كول، "كيف تفكر" للدكتور جبسون، "العقب الحديدية" لجاك لندن، "العرب (تاريخ موجز)" للدكتور فيليب حتي، إضافة إلى بعض آثار جون شتاينبك ، وأرتسكين كالدويل وغيرها.

وفي حقل التأليف المدرسي ألف مع الأستاذين شفيق جحا وبهيج عثمان سلسلة "المصور في التاريخ" للمرحلتين الإعدادية والثانوية، قيل أنها كانت الأقرب ما يمكن أن يكون كتاب التاريخ الموحد لدراسة التاريخ اللبناني الذي أوصى اتفاق الطائف بإقراره.

---

(١) أصدر أيضاً مجلة "العلوم" التي رأس تحريرها بين عامي ١٩٥٦- ١٩٧٢ ولاقت نجاحاً كبيراً.



والحقُّ ما سنَّ القويُّ بسيفه
فلسيفه التحليل
والتحريمُ

هكذا هي الحياة، وهذا هو منطقُ الطبيعة، فالسيطرة للقوة، ولها وحدها الغلبةُ. كان هذا منذُ البدء ولا يزالُ حتى الآن، وإن اختلفت الأساليبُ وتنوعت الأقوالُ والشعارات.

إن حبَّ السيطرة والتحكم أو التسلط هو غزيرةٌ إنسانيةٌ فردية وجماعية ودوليّة ، أهمية، استمدها الإنسان من طبيعته الحيوانية، من شريعة الغاب، منذ أن وُجد على الأرض.

هذه الغريزةُ طبيعة وليست مكتسبة، وتظهرُ لديه بشكل واضح كلما ملك المال والقوة بالنسبة له كفرد، وللجماعة وللدولة أيضاً ولا استثناء. ولكن قد يوجدُ بعضُ الأشخاص لا يستعملون هذه الغريزة في سبيل السيطرة والتغلب لكنهم قلة، ولا أثر لهم في النتيجة النهائية، ويبقى القويُّ مسيطراً على الضعيف، والغنيُّ على الفقير وليس العكس، وقد وصفَ اللهُ سُبحانه ذاته بأنه القويُّ الغنيُّ القادرُ، وبأنه الواحدُ الجبارُ القهارُ العليمُ، وليس كمثله شيء. ولهذه الصفات والأسباب دان له الخلقُ، وكان هو الخالقُ وحده لا شريك له، لأن لا أحد مثله قوةً وغنى وعلما.

ومن يتقصى سيرة الأفراد والجماعات والأمم والدول، يجدُ نفس الحقيقة، وهي أن الجماعات القوية عسكرياً واقتصادياً، كانت تسيطر على من هو دونها قوةً واقتصاداً، والتاريخُ شاهدٌ صادقٌ وموثوقٌ، حيث أنبأنا بأن الأمم القوية كانت تسيطرُ وتتحكمُ بالأمم الضعيفة ولا تزال وليس العكس.

فقد سيطر الإغريق على شعوب أوروبا وأفريقيا وآسيا من قبل الميلاد، وتبعهم

فـي السيطرة الرومان والفرس، ثم العثمانيون وشـعوبٌ وأمـمٌ أخرى كثيرةٌ، فقد فعلت الأمم الأوربية الحديثة كما فعل السابقون، فاستعمروا العالم وسيطروا عليه وحكموه واستغلوه أبشعَ استغلال..

وجـاءَ اليـوم دورُ الولايات المتحدة الأمـريكيةِ الـتي تـتفرد بحكـم العالم الحالي وسـتفعلُ كـل أمـةٍ قويـة فعل هذه الأمم ولا استثناء أبداً.

وكـلٌّ واحـدة مـن هـذه الأمم تبررُ سـيطرتها وحكمهـا للأمم الأخرى بألف حجة وحجـة، وجميـعُ تـلك الحجج كاذبةٌ إلاّ حجةً واحدة رئيسية وهي مصلحتُها بالاستيلاء على خيـرات الأمـم الضـعيفة واستغلالها والتغلبِ عليها وجعلها تابعةً لها.

إن هـذه الغرائـز كالتسـلطِ والطمعِ والاسـتغلال طـبيعيةٌ ولا يمكن التخلصُ منها إطلاقـاً مهما تطورت الأمم وتقدمت الشعوب، لأنهـا مـرافقةٌ لـلوجودِ الإنساني، يقولُ (ابن خلدون) :

"إن المغالـبة والمحالفـة إنمـا تكون بالعصـبية- أي القـوة – لما فيها من النعرة، وسـببُ ذلـك أنَّ الملكَ منصبٌ شريفٌ ملذوذٌ يشتملُ على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات الـبدنية والمـلاذ النفسانية، فيقعُ فيه التنافسُ غالباً، وقلّ أن يسلمه أحدٌ لصاحبه إلاّ إذا غُلب عـليه، فـتقع المـنازعة وتفضِ إلى الحربِ والقـتال والمغاليـة وشـيءٌ منها لا يقعُ إلاّ بالعصبية – القوة " .

والذي يزيدُ من شدة التغلب والسيطرة هو الفعل الإنساني، الفكرُ، بما نوصلَ إليه من إنجازات علمية تكنيكية وصناعات واختراعات، بـلغتْ أوجـاً رفيعـاً من التقدم، فزادت تحكم الأقوياء بعالم المادة والمجتمع والفكر، وزادت سـيطرتهم بالتحكم في الأمم والدول الأضعف. ومهمـا تقدمـت الـثقافة الأخلاقية والإنسانية والديـنية وغيـرُها في تربيةِ الإنسان فإنها لا تفيـدُ كـثيراً في النيل من قوةِ هذه الغرائز أو تحويلها عن مسارها الطبيعي، من أجل التغلب والسيطرة والاستقلال، ولا يمكن نزعها منه.

وتـزداد صلفاً كلما ازدادت قوةً ومالاً، وبالـتالي تـبقى الغلبةُ للقوي ولبقي الضعيفُ محكومـاً ومسـتغلاً وذليـلاً، ولا حدود لظلمِ الأقويـاء . فكم أزالوا من دولةٍ وخلقوا أخرى وكـم عدّلـوا مـن خرائط وقسموا أمماً؟! إن الـتاريخ يحدثُـنا ويـبرهن عـلى صحة هذه الحقائق.

هكـذا يتبين أنَّ قيمة الفرد والجماعة والدولـة والأمـة هي بمقدار ما تملكُ من قوةٍ عسـكرية واقتصادية وليس لأيِّ سببٍ آخر ، لأنَّ جميـعَ الأسباب الأخرى لا قيمة لها ما لم تفـض إلى القـوة والغنى الحقيقيين. إن القيم والمـثل الأخلاقية والإنسانية لا قيمة لها البتة بالنسبة لسياسة الدُّول؛ إنما هي أقوالٌ نظرية، نادى بها الأقوياء ، لخداع الضعفاء. ولا خفاء مطـامعهم وشهواتهم بتلك الأقوال المعسولة. وهكـذا كانت تتجلى هذه الحقيقة في كل عهد مـن عهود التاريخ، حيث يسيطر القوي على الضـعيف والغـنيُّ على الفقير، والأمة القويةُ على الأمة أو الأمم الضعيفة ولا شواذ.

ولكن الأمر لم يكنْ كما هو الآن حيثُ تـتحكمُ الولاياتُ المتحدة الأمريكية وحدها بهذا العـالم، ولم يكنْ الأمرُ كذلك قبل سقوطِ الاتحاد السـوفيتي ومنظومـته الاشتراكية، وقد صرَّحِ (جورج بوش) ، رئيسُ الولايات المتحدة قائلاً – من ليس معنا فهو علينا – فإن وقفتْ الأمم

معه فقد ازداد قوةً وقدرة، ولكن لا أحد - الآن - يستطيع الوقوف ضده ، إذن أمريكا أولاً وأخيراً.

إنَّ تفردها في حُكم العالم هو حدثٌ جديدٌ في التاريخ وهو يحصل لأول مرة، فقد كانت توجدُ عدةُ أممٍ قوية في آن واحد يسيطرُ كلٌ منها على جزءٍ منه، وبالتالي بقي التوازن العالميّ متوفراً. ولم يكن باستطاعة أية دولة مهما كانت غنيةً وقويةً أن تسيطر وحدها، لعدم وجود الوسائل والمخترعات التكنولوجية المتوفرة الآن والتي جعلت من الكرة الأرضية على اتساعها قريةً صغيرةً يمكنُ التحكم بها وحكمُها.

وهكذا تعددت الإمبراطوريات القوية في وقت واحد، وأوقفت كلٌ منها الأخرى عند حدود قوتها وسيطرتها - كما قال ابن خلدون - وكانت الأممُ الصغيرةُ والضعيفةُ تتحالفُ مع الأمة القوية، ولم تكن قارةُ أمريكا مكتشفة وحتى عام ١٤١٢ ميلادية.

بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ انقسم العالم إلى كتلتين كبيرتين، الكتلة الشرقية الاشتراكية ويتزعمُها الاتحاد السوفيتي، والكتلة الرأسمالية الغربية وتتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية، ومجموعة ثالثة نسبت لنفسها الحيادَ دون حياد، ولم يكن تأثيرها كبيراً.

وهكذا توازنَ العالمُ بصورةٍ إيديولوجيةٍ حقيقية عن سابق قصد وتصميم وأوقفَ كلٌ منهما خصمه عند حدّه، وبدأت الحربُ الباردةُ بين الجبارين، وكان لكل أمة صغيرة أو كبيرة مكان لدى أحدهما، فتحققت العدالة نسبياً، وبشكل مقبول، وكان باستطاعة أية دولة أو أمة أن ترفع صوتها وتناضل في سبيل حقِّها وتقرير مصيرها، وتجد آذاناً صاغيةً ولا سيما من قبل هيئة الأمم المتحدة.

أما وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي ومنظومته الاشتراكية عام ١٩٩٠ فقد تفردت الكتلة الرأسمالية الغربية تقودُها الولاياتُ المتحدة الأمريكية بحكم العالم دون منازعةٍ أو معارضة من أحد - ولكن ليس بصورةٍ هادئة وبحسن نية كما يقال في عالم الحقوق والحيازة، كان ذلك بسبب قوتها العسكرية والاقتصادية، فغدت أقوى دولِ العالم وأعظمها شأناً.

وقد مكنتها من ذلك أسبابٌ أخرى كثيرةٌ أهمُها:

أولاً: اعتمادُها على النظام الديمقراطي، الذي يناسبُ هذه المرحلة، والذي مكّنَ الشعبُ من حكم نفسه بنفسه بصورة حقيقة وفعلية إلى حد كبير. فسخرت الدولةُ لمصلحة الأمة أو الشعب بشكل صحيح نسبياً، وبالتالي فقد اشترك أفرادُ الشعب جميعُهم بالحكم، فاستخدموا جميع إمكانياتهم في سبيل المصلحة العامة واختفت مصالحُ الطبقة الحاكمة أو النظامُ الشخصي إلى حد كبير. (هذا في النظام الرأسمالي البرجوازي السائد حتى الآن) .

ثانياً : اعتمدت مبدأ الحرية بمعناها الواسع، وأتاحتها للأفراد والجماعات والأحزاب والجمعيات والنوادي، وما في حكم هذه التنظيمات، وفي جميع الميادين الفلسفية والعلمية والسياسية والاقتصادية والثقافية والعقائدية والدينية وغيرها، مما أتاحَ لها استثمار طاقات شعبها بشكل كامل ، واندفع كلُ فرد من أبنائها يبذلُ كلَّ ما في طاقته ووسعه من العمل لإنتاج أكبر وأجود كمية ، أو مقدار

ممكن ليحصل بدوره على أكبر أجر، وكان أجره بمقدار إنتاجه الفعلي، فكان إنتاجُها أكبر إنتاج كماً وكيفاً، فكانت الدولة أقوى دولة اقتصادية في العالم.

كما أنَّ الشعب التزمَ بتطبيقِ القانونِ والتزم بالنظامِ واقتربت الممارسةُ والتطبيق من النظرية، وطابق العمل القول فكان الصدق الذي تبنى عليه الحضارة، وقد قال (لينين) : "الممارسةُ أعلى درجة من النظرية"

لقد أجمعَ السياسيون والمفكرون والفلاسفة على أن من أهم أسباب انهيار النظام الاشتراكي هو تخلفُ الممارسة والتطبيق عن النظرية الماركسية الفلسفية التي اعتمدها ذلك النظام، وفقدان الديمقراطية والحرية.

ثالثاً: اعتمدت الولاياتُ المتحدة منذ تأسيسها على العلم والعمل جوهري التقدم والحضارة، فتبنت الفلسفة الواقعية والموضوعية في سياساتها المختلفة، وجعلت من العلمِ والعملِ شعاراً لها، تاركة نظريات الأساطير والحكاياتَ والغيبيات والعقائد وما في حكمها إلى من يعتقد بها وكل ما لا يمكنُ البرهانُ على صحته عقلياً وواقعياً ، لأصحابها ومعتقديها، وأخذت بقول الشاعر:

بالعلم يرقى كلُّ شعبٍ للعلا

وهو الركيزةُ للحضارةِ في الأممِ

رابعاً: استغلت ثروات بلادها الواسعة الخصبة والغنية خير استغلال، وفق أحدث الطرق العلمية الحديثة، فحسَّنت إنتاج الحبوبِ والخضراوات والأشجارِ المثمرة، وكذلك الثروةَ الحيوانية، من حيثُ الجنسِ والنوعِ وغزارةَ الإنتاج، فأغرقت أسواقَ العالمِ بإنتاجها المميز، كما أنها برعت بصناعاتِها وتجارتِها فكانت الدولة الأولى صناعياً، واستولت على أهم المراكز التجارية المميزة، فتجمعت لديها أكبر قوة اقتصادية وعسكرية وعلمية في العالم مما مكّنها أن تتفرد في حكمه والسيطرة عليه.

خامساً : كما أنها خرّجت عدداً كبيراً من العلماءِ والخبراء في مختلفِ الميادين وأولتهم كلَّ الاهتمام، ولم تكتفِ بذلك بل استقدمت أكبرَ عدد من علماء وخبراء العالم على مختلف اختصاصاتهم، وأكرمتهم وأغدقت عليهم مالاً وفيراً، وأمنت لهم كلّ أسبابِ الحياة الكريمة المرفهة، فتقاطروا إليها زرافاتٍ ووحداناً، وخاصةً من بلدانِ العالم الثالث، ومن بلدانِ المعسكر الاشتراكي أخيراً، كما أنها تحاولُ استجلاب علماء أوربا أيضاً، ساعدها في ذلك الغنى المالي، وعدم تقدير العالم الثالث لعلمائه ومفكريه ومخترعيه، وربما اضطهاده لهم فهربوا من بلدانهم أو غادروها، وكلهم أسى وحسرة عليه، ولكن لم يكن في يدهم حيلة فالأوطان في تلك البلدان ليست للجميع.

سادساً: استقدمت أيضاً رؤوس الأموال من مختلف بلدان العالم، وخاصة الثالث بما لنظامها من مزايا، من حيث حفظها وفائدتها.. فتدفقت الأموالُ إلى مصارفها وأصبح (الدولارُ) عملةً عالميةً يماثل الذهبَ إن لم يفقهُ، وفاضت بنوكهُم به في الوقت الذي افتقرت به مصارفُ العالم ونزل بها الجوعُ والفاقة، ولم يعدْ في مصارفها ما تدفعه من مال حتى إلى موظفيها. وها هو رئيس الأرجنتين يقول ويعلنُ للملأ من على التلفزيون، بأنه لم يعد هناك (بيزو) واحد في مصارف الأرجنتين، مما جعل الشعب يثورُ ضدَّ حكامه، في الوقت الذي يملك فيه أغنياءُ الأرجنتين مليارات الدولارات، لكنّها مودعةٌ في

مصارف أمريكا ولا فائدة لشعبهم منها. وكذلك الحالُ نفسهُ بالنسبة للوطن العربي حيثُ يضعُ أغنياؤه اكثر من ألف وخمسمائة مليار دولار في مصارفِ أوربا وأمريكا، بينما تعيش شعوبهم في حالة من الفقر بل والفقر المدقع، وكثيراً ما تعودُ الولاياتُ المتحدة لتقرضَ دولَ العالمِ الثالث من أموال مواطنيهم قروضاً كبيرةً بفائدة فاحشة، وبشروط قاسية تفقدُها استقلالها وقرارها الحر.

سابعاً : إضافة إلى تلك الأسباب التي جعلت منها الدولة الأولى في العالم، فقد سعت جاهدة منذُ انتصار الثورة الاشتراكية الكبرى في روسيا عام ١٩١٧ إلى إسقاط تلك الأنظمة التي قامت على أساسِ مبادئها، وخاصة الإتحاد السوفياتي، فجنَّدت كلَّ ما تملكُ من قوة مع جميع الدول الغربية الاستعمارية وأنظمةَ بلدان العالم الثالث، وبعضِ حكام الكتلةَ الاشتراكية لاسقاطه، وقد تم لها ذلك عام ١٩٩٠ ، فتنفست الصعداء، واستتب لها الأمرُ وحدها، وبقيت وحيدة تسودُ العالمَ وتتسلطُ عليه قهراً وجبراً كما تشاهدُ أفعالها وتصرفاتِها الآن، في العراق وليبيا ويوغسلافيا وفلسطين.... حيث تتدخل في سياسة كل دولة على الإطلاق، فتصفُ بالمروقِ كلَّ من يخالفها وبالإخاء والإنسانية كلَّ من يجاريها، حتى أن هيئة الأمم المتحدة أصبحت هيئةً للولايات المتحدة الأمريكية، تمرر عبرها ما تراه مناسباً من القرارات الدولية التي تخدم سياستها.

وهكذا استتب لها الأمرُ، ودانت لها جميعُ الدول، وما من قرار يصدرُ عن هيئة الأمم أو المنظمات الدولية والإقليمية والمؤتمرات العالمية إلاّ وفق إرادتها ولو نال موافقةَ الجميع، فلها وحدُها الكلمة العليا والأخيرة، تحاربُ من تشاء وتسالم من تشاء، تشرعن الباطل، وتبطلُ الحقَّ، وليس هناك من ممانع أو رادعٍ حقيقي يستطيعُ الوقوفَ في وجهها. إنها مشكلةُ العصر، إنها الخطرُ المحدقُ والحال في العالم.

لكن يخطرُ ببالِ كلِ مفكر أو مستمعٍ أن يسأل هذا السؤال:

"لماذا لم تستطع بعض الدول الكبيرة مثل روسيا أو إنكلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو الصين وغيرها، أن تكونَ أحداها هي الأولى قوةً عسكرية واقتصادية، كما الولايات المتحدة الأمريكية؟!"

سؤالٌ هامٌ لا سيما أن جميعَ هذه الدول أكثرُ عراقة ومجداً، وأقدمُ حضارة وأسبق علماً، وبعضُها أكثرُ غنى أيضاً لا سيما وإن أمريكا طفلةٌ بالنسبة لهذه الدول. أعتقدُ أنني قد أجبت عن هذا السؤال عندما عددتُ ميزات النظام الأمريكي وأسبابَ تفوق الولايات المتحدة الأمريكية. وأُجملُ تلك الأسباب بما يلي ، اعتمادها على الديمقراطية والحرية الحقيقيين بالنسبة لهذه المرحلة التاريخية، واتخاذها من العلم والعمل والالتزام بالقوانين والأنظمة شعاراً لها، وقدرتها على استقدام العقول والخبرات العالمية ورؤوس اموال ، وتسخير جميع هذه القدرات في بناء جيشٍ قوي واقتصادٍ متين، والتصميم على حكم العالم عن سابقِ قصدٍ وإصرار.

وقد ساهمت جميعُ دولِ العالم، وخاصة بلدانُ العالم الثالث والمنظومة الاشتراكية، في إيصالها إلى المرتبة الأولى، وجعلها الدولة الأقوى في العالم كما ذكرت سابقاً، فأنظمة العالم الثالث الديكتاتورية القمعية والاستغلالية والتي اختصرت شعبوها

بحكامها أجبرت علماءَها وأصحابَ رؤوس الأموال الوطنية على الهروب إلى مصارف أمريكا والغرب، وكذلك فعل حكامُ الكتلة الاشتراكية، بما مارسوه من دكتاتورية وقسوة واضطهاد ضدَّ شعوبهم، حيث فعلوا وتصرفوا بخلاف مبادئهم الاشتراكية العلمية، فغيبوا الشعب وغابت الديمقراطية والحريةُ بغيابه فلاقوا ذلك المصير. وهكذا ساهم العالمُ بجعلِ أمريكا أقوى دول العالم، دون منافسٍ أو معارض حتى الآن.

وللبرهانِ على صحة ما أوردته أقول

لو افترضنا جدلاً، أن جميع العلماء والمفكرين من غير الأصل الأمريكي عادوا إلى بلدانهم فهل يبقى لأمريكا ذاتُ القوة العلمية والتكنولوجية؟! التي تتمتع بهما الآن؟ كلا

ولو سحب أصحابُ رؤوس الأموال – من غير الأصل الأمريكي – أموالهم المودعة في مصارفهم، فهل يبقى أمريكا في هذا الغنى الذي تتمتع به؟!

طبعاً لا ، وهل كان باستطاعتها أن تتحمل ما تتحملهُ من مسؤوليات، أو كان لها قدرةً على حكم العالم كما تفعلُ اليوم. الجواب لا .

فهي لن تبقى الأقوى، ولن تبقى الأغنى، وبالتالي لم تعدْ هي الأولى.

هكذا ساهم العالمُ وخاصة العالم الثالث في تسييدها عليه.

بقي أن نسألَ وإلى متى تبقى هذه الدولةُ تحكمُ وتتحكمُ في العالم؟! لا سيما وأن حكمها له في بدايته.

إن أمريكا خططت منذُ زمن بعيد للوصول إلى حكمِ العالم والسيطرةِ عليه.. وقد وصلت الآن.. وهي تسعى جاهدةً لتوطيد وتمتين هذه السيطرة بما لديها من طُرق ووسائل لهما تكن صفتها، فالغايةُ عندها تبررُ الوسيلةَ كما قال (ميكيافيلي) ، وأعتقد أنها تهدفُ لتجزئة الدولِ إلى أكبرِ عدد ممكن بافتعال الخلافات بين القوميات والمذاهب والأديان وبعث الأحقاد التاريخية من جديد، لتجعل من العالمَ ألفي دولة بدلاً من المئتين، وبذلك تؤمن سيادةٍ طويلة الأمد، ولا يعرفُ نهايتها إلاّ الله.

وكم نتمنى أن لا تحقق أهدافها وأن لا يطول حكمُها!

لكن كل ما ذكرتُه وفصلتُه إنما هو توصيف وتشخيص وتحليل على أن السؤال الأهم هو:

ما العمل؟ وكيف التخلص من هذه الشبكة الأمريكية التي وقع العالمُ فيها؟ أو على الأقل كيف يمكنُ لأيةِ دولة أن تتمتع بشخصيتها المميزة الذاتية، لتكون صاحبة السيادة الوحيدة في قراراتها. .؟

إن قوانين تطور المادة والمجتمع والفكر حتميةٌ ولا تثبت عند حد، فكلُّ شيءٍ متغير ومتبدلٍ باستمرار كما يقول الفيلسوف (ديمقريط) ، ومن المستحيل أن يبقى العالمُ رهينةً لأمريكا، فلا بد أن تتحرر الشعوبُ مهما طال الزمن.

إن تحرر الشعوب يتبع أحد الطرق، إما بظهور قادةٍ أفذاذ وعباقرةٍ يقودون شعوبهم نحو تحقيقٍ هذه الغاية، وليبنون لهم دولةً عصريةً متحضرة تأخذ بأسباب الرقي والتقدم، وتمتلك أسباب القوة والغنى كما فعلت أمريكا، بل وربما تتفوقُ عليها. وإننا كثيراً ما نسمعُ الآن بأن تتفوقَ في هذا القرن (للصين) .

أو يحقــقَ هذا الهدف التطورُ البطيءُ الــتدريجي عــبرَ عقــود الزمن الطويلة، وفقاً لقانون التطور والحياة، وأعتقدُ أن هذا الطريق بطيءٌ جداً وممل ولا ترغب فيه الشعوب، ولم تعد تصبرُ عليه، لا سيما وإنها تدفعُ الكثير من دمــاء أبــنائها وشــرفِها وكرامتها، فكثيراً ما يُطلبُ الموتُ – الشهادةُ – من أجل الحياة.

والطــريقُ الــثالث هــو أن تثورَ هذه الشــعوبُ عــلى النظم التي تتحكمُ بمصيرها، والــتي كــانت سبباً في خنوعها وفقرها وذلّها وانكسارها.

فــلولا الــثوراتُ العالميــة كالــثورة الأمــريكية والفرنسية والاشتراكية لما تحررت شعوبُ العالم ولبقيت متخلفةً مظلومة مضطهدة من قبل حكامها.

إن تــلك الــثورات هــي الــتي أتت بالديمقــراطية والحرية والعدالة والاشتراكية، وهــي التي أعطت الإنسان جميع الحقوق التي تضمنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

وأن تنهج هذه الدول نهجاً ديمقراطياً حُــراً عادلاً، وأن توزعَ ثرواتها على مواطنيها بشــكل عــادل، وأن تحقــق المســاواة بيــن المواطنين، وأنْ تتعامل مع بعضها على أساس تــبادل المصــالح وحســن الجــوار مستلهمة مصلحة الشعب أولاً وأخيراً.

وأقولُهــا بصــدق إن تنكرَ أكثر بلدان العــالم الــثالث لأصــدقائه دول المــنظومة الاشــتراكية لما بذلوه في سبيل استقلال دوله، وتسليح جيوشه، وبناء اقتصاده، وتعليم أبنائه، ومســاندتهم في المحافل الدولية، كان من أكبر الأسـباب الــتي ســاهمت فــي سقوط الاتحاد الســوفيتي وتــلك المــنظومة، وقــد ذكر ذلك الصــحفي الكبير الأستاذ (حسنين هيكل) مراراً وتكراراً. وليس هذا سراً يذاع.

لقــد تنكروا له وضيقوا عليه، وسعوا لإسقاطه سرّاً وعلناً وبالسلاح، فقتلوا صديقهم الصــدوق وبقي عدوهُم اللدود، فانظروا كيف فعلوا!

لقــد أســقطوا صــديقهم وحــاميهم وحارســهم، ومــن كــان يقــفُ معهم في كل أزمــاتهم.. لقــد أســاءت أنظمــتُهم لشعوبهم كــثيراً.. إنهــم يصــرخون الآن ولكن لا أحد يجيــب. إنهم يستنجدون بعدوهم. رحم الله أبا الطيب المتنبي حين قال:

ومن نكدِ الدنيا على الحرِ أن يرى
عدّوا له مــا مــن صداقتــه بــدُّ

لقــد صدقت قصة الثور والأسد، التي وردت في كتاب (كليلة ودمنة) .

وأخــلصُ إلى القــول إن على شعوب بلدان العالم الثالث ودول المنظومة الاشتراكية الســابقة أن ترســمَ مسارَ طريق الخلاص مما هي عليه الآن من وقوعٍ في الشبكة الأمريكية الــتي اصــطادتها، لتتخــلص مــن ظــلمها واضــطهادها واســتغلالها لخيــراتها والتحكمِ والتســلط عليها، حتى يطلعَ صبحُها، وتشرق شمسُها ويعودَ التوازنُ وتسودُ العدالةُ.

ولتحقيق ذلك لا بدَّ من اتباع الخطوات التالية:

١- أن تــثور شــعوبُ بلدان العالم الثالث ضــد الأنظمة الديكتاتورية الحاكمة فيها، كمــا فعــلت الشعوبُ الحية قبلها، والتي قامت بالثورة الأمريكية والثورة الفرنسية والــثورة الاشتراكية الكبرى، حيث تسلم الشعبُ مقاليد الحكم بصورة حقيقية.

٢- أن تتبنى الأنظمة الثورية الجديدة مبادئ تلك الثورات، من ديمقراطية وحرية وعدالة إنسانية، وحقوقٍ متساوية بين المواطنين وتوزيع لثروات بلدانها، بشكل متقارب وعادل، وأن تطبق ما جاء بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر عن هيئة الأمم المتحدة.

٣- إصدار الدساتير والقوانين التي تتضمن مبادئ تلك الثورات وذلك الإعلان، وأن تتيح للجميع حرية تنظيم الأحزاب السياسية والجمعيات والنوادي وما في حكمها، إلى جانب حرية الرأي وإصدار الصحف والمجلات والنشرات أيضاً..

٤- أن تسمح بحرية التظاهر والإضراب والاحتجاج بشكل سلمي.

٥- فصل الدين عن الدولة كما هو الحال في بلدان أوربا وأمريكا، واحترام عقائد وأديان جميع المواطنين، وحماية عباداتهم لأن ذلك هو جوهر الحرية، والذي لا يجوز أن يجري فيه نقاش، لأن النقاش في المعتقدات لا يفيد شيئاً، ويؤدي إلى التفرقة والبغضاء بين أبناء الشعب الواحد وشعوب العالم أيضاً. فليعتقد كلُ فرد بما يعتقده، وليحترم كل شخص عقيدة الآخر، فالإيمانُ الحقيقي هو احترامُ جميعِ عقائدِ وأديانِ البشر.

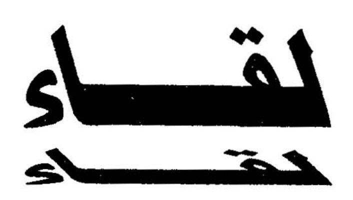
٦- أن تتبنى الأنظمةُ الثورية الجديدة العلمَ والعملَ كأساسٍ لممارساتها لإقامة دولةٍ علمية حديثةً تقومُ على معطيات ونتائج العلوم الموضوعية، وتحافظُ على علمائها وخبرائها، وعلى رؤوس أموال مواطنيها، وأن توفر للجميع الاحترام والتقدير والاطمئنان.

٧- أن يكون الشعب متمثلاً تمثيلاً حقيقياً في قيادة الأمة عبر أحزابه ومنظماته وجمعياته ونقاباته، لا أن يكون ذلك بالشكل وإنما بالفعل.

٨- إشعار جميع مواطني الأمة بأنهم متساوون في الحقوق والواجبات، وحسب كفاءاتهم، وأن يبرهنَ على ذلك في حيزٍ الواقع والتطبيق لا أن يكون ذلك نظرياً وعلى الورق فقط.

٩- أن يتقدم كلُ موظفٍ أو مسؤول عند استلام مهامه في الدولة ببيانٍ مفصل عن ثروته المنقولة وغير المنقولة، وعن ثروة زوجته وأولاده أيضاً، وبمثله عند انتهاء عمله أو مسؤوليته. وأن تؤلف لجنةٌ للتدقيق فيما يملك، فإذا تبين أن ما يملكه من عمله كان قانونياً أُعطي براءة ذمة وإلاّ اتخذ بحقهِ الإجراء القانوني اللازم.

١٠- هذه الاقتراحات هي أهمُّ ما يجبُ أن تفعله أيةُ أمة تريدُ الحفاظ على وجودها متحضرةً قويةً وغنية، لها وجودُها الحقيقي واستقلالُها الذاتي وقرارُها الحر في مختلف ميادين سلوكها، ولتحقيق أهدافِها القومية والإنسانية عليها أن تتعامل مع أمم العالم على قدمِ المساواة، لتبقى عصيةً على أعدائِها، ومطرحَ فخرٍ واعتزاز لأبنائها وللإنسانية.



لحكيم بن عكرمة

تقـــولُ بثيــــتةُ إذ أنكـــرتْ
قُـــنُوءا مـــن الشـــعر الأحمـــرِ
برأســـي كـــبيرتَ وأودى الشـــبابُ
فقـــلتُ مجيـــباً لهـــا أقصـــري
أمـــا كـــنتِ أبصـــرتني مـــرَّةً
ليـــاليَ نحـــنُ بـــذي جوهـــرِ
ليـــاليَ أنـــتمْ لـــنا جيـــرةً
ألا تذكـــرين بـــلى فاذكـــري
وإذ أنـــا أغيـــدُ غـــضٌّ الشـــبابِ
أجُـــرُّ الـــرِداء مـــعَ المِـــئزَرِ
وإذا لِمَّـــتي كجـــناحِ الغُـــرابِ
تُـــرَجَّلُ بالمســـكِ والعنـــبرِ
فغيَّـــرَ ذلـــكِ مـــا تعـــلمينَ
تغيُّـــرُ ذا الـــزَّمَنِ المُـــنْكَرِ
وأنـــتِ كـــلؤلؤةِ المـــرزُبانِ
بمـــاء شـــبابكِ لـــم يُعْصَـــرِ
وقـــد كـــان مضـــارُنا واحـــداً
فـــإني كَـــبِرْتُ ولـــم تكـــبري

الحركة الشعرية في حلب في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين

بقلم:
محمد الزينو السلوم

ثمة أمور عديدة وهامة يجب الأخذ بها، وأمور أخرى يجب وضعها في الحسبان قبل الولوج في بحر الحركة الشعرية بحلب، المدينة العريقة بأصالتها وجذورها العربية وخاصة فيما يتعلق بالإبداع الأدبي بشكل عام والشعر بشكل خاص، لدرجة يصعب فيها الإلمام بمجموع الشعراء في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، بغض النظر عن كونٍ المبدع من أصل حلبي، أو من ريفها، أو مقيماً فيها، وقد يربو عددهم على /١٢٥/ شاعراً معاصراً، ممن لهم إصدارات شعرية، أو لم تتح لهم الظروف بعد لنشر أعمالهم في مجموعات مطبوعة على الرغم من حصولهم على موافقات لطبع مخطوطاتهم، ونشر العديد منها في الدوريات المحلية، حالهم حال بعض الشعراء الذين يقومون بنشر العديد من القصائد وليس لديهم إصدارات أو حتى مخطوطات بعد.

وكما نعلم فهناك مدارس مختلفة لكل نوع من الشعر (العمودي – التفعيلة – النثر) ، وهناك شعراء يكتبون في أكثر من نوع، ولهم العديد من الإصدارات بذلك، وعليه سأحدد في دراستي هذه مكاناً واحداً لمثل هؤلاء الشعراء مع الإشارة إلى النوع الآخر من الإبداع الشعري (على أن يوضع الشاعر في الجانب الأهم والأكثر في نتاجه) وكذلك سيكون ترتيب الشعراء غير خاضع لأي اعتبارات تحسب للشاعر أو عليه، وإنما ستكون غير منهجية فيما يتعلق بالمستوى الإبداعي أو السن، أو عدد المجموعات الصادرة له حتى الآن، وغير خاضعة لترتيب الأبجدية، ولا لمستويات نتاجهم الإبداعي، ولا حتى لأعمارهم..

لقد ساهم الشعراء جميعاً على اختلاف مدارسهم ومستوياتهم في النهضة الأدبية في سورية بشكل خاص وفي الوطن العربي بشكل عام من خلال إصداراتهم، أو منشوراتهم في الدوريات المحلية والعربية معاً، ولن أتعرض

في دراستي هذه للأجناس الأدبية الأخرى كالقصة والرواية وغيرها، ولعل هناك من تناول مثل هذه الدراسات أو من سيتناولها في المستقبل، كدراسة الحركة الشعرية حالياً، قد يكون هناك من تناولها سابقاً، أو من سيتناوله لاحقاً بشكل أفضل وأدق بما يخدم النهضة الأدبية بأجناسها العديدة والمتنوعة.

اتصف الشعر العربي في غالبيته بالشعر الغنائي، بينما تنوعت وتلونت موضوعاته، بين شعر اجتماعي وسياسي ووجداني وغزلي وغير ذلك، بغض النظر عن قيمته ومستوياته الفنية، ونوعيته، وتفاوت بين من بلغ شأواً رفيعاً، وما لا يكاد يقف على قدميه، باعتبار أن هذه المرحلة باتت تموج بالشعراء الذين تجاوبوا مع المجتمع، والظروف المحيطة بهم، وخاصة الفكرية منها والاجتماعية، على اختلاف مستوياتهم وعمق تجاربهم، وتفاوت إصداراتهم، وهناك كما ذكرت العديد منهم ممن لم تسمح لهم الظروف لإصدار نتاجهم الشعري، سواء منهم الشعراء الذين امتدت تجاربهم طويلاً مثل (الشاعر أحمد ديبة – محمد خطيب عيان – عادل مصري.. الخ) ، ومنهم من لم يزل في مقتبل العمر مثل (محمد صهيب عنجريني – محمد نائل حريري.. وغيره من الشعراء الشباب) .

برزت في هذه المرحلة – كما كانت من قبل – بعض التجمعات أو الأسراب، وكادت أن تصبح أقرب إلى (الشللية)، لكل نوع من الشعر، مما أدى إلى وجود حوارات، وأحياناً صراعات تجلت في بعض الأمسيات الأدبية، أو من خلال ما ينشر في الدوريات المحلية (صحيفة الجماهير) اليتيمة في مدينة حلب من حيث الصحف والمجلات الدورية، مما يدفع بهم للنشر في العاصمة دمشق من خلال بعض المجلات (الموقف الأدبي – المعرفة – صوت فلسطين – فتح – الثقافة وغيرها) ومن خلال بعض الصحف (الأسبوع الأدبي – تشرين – الثورة وملحقها الأسبوعي – البعث – الثقافة ، وغيرها من الصحف) هذا بالإضافة للنشر في دوريات العديد من الأقطار العربية وخاصة اللبنانية، والخليجية، والسعودية، وأحياناً المصرية، وغيرها، أما فيما يتعلق بالشعر المسرحي أو الملحمي فيكاد لا يذكر، وإذا وجد فهو لا يزال ضمن المخطوطات ينتظر حظه ودوره في النشر.

أما النقد الأدبي فيكاد يكون مفقوداً، أو مقتصراً على بعض الدارسين أو القراء الانطباعيين، من خلال ما ينشرونه أو يصدرونه على شكل دراسات مقتضبة، بعيداً عن النقد التخصصي الموضوعي من أصحاب الشأن، وهؤلاء قد لا يتجاوزوا أصابع اليد الواحدة، فيما يتعلق بجميع الأجناس الأدبي وليس الشعر فقط مثل (الدكتور نعيم اليافي – الدكتور عمر الدقاق – محمود فاخوري – محمود منقذ الهاشمي – محمد عزام – محمد زياد مغامس) ، وأقصد بهم النقاد غير المبدعين لأي نوع من الأجناس الأدبية (الشعر – القصة – الرواية .. الخ) أما من يكتب أي نوع من الأجناس الإبداعية فهم قلة أيضاً، مثل (الدكتور أحمد زياد محبك – الدكتور نضال الصالح – فائز العراقي – أحمد دوغان – محمد أبو معتوق – محمد زينو السلوم – غالية خوجة – محمود أسد – مأمون الجابري.. الخ) ، وهناك العديد من القراء الانطباعيين الذين لم آت على ذكرهم لضيق المجال وهم كثر إلى حد يصل إلى درجة أن كل مبدع هو دارس أو قارئ انطباعي جيد، ويتبدى ذلك من خلال الأمسيات التي يمارسون فيها النقد في فرع اتحاد الكتاب العرب والمراكز الثقافية وفي النوادي والجمعيات، وحتى في الصالونات الأدبية بين الحين والآخر.

أما النشاطات الثقافية التي تقام في مدينة حلب فهي نشاطات أسبوعية في أكثر

الأحيان كنشاط فرع اتحاد الكتاب العرب الأسبوعي بمعدل مرة أو مرتين في الأسبوع، ونشاط مديرية الثقافة الذي يتضمن نشاطات أسبوعية في مركز العزيزية، ومركز الصاخور، وفي المراكز الثقافية في الريف والتي يشترك فيها نشاط فرع اتحاد الكتاب العرب أيضاً، وكذلك نشاط نادي التمثيل العربي للفنون والآداب، والنادي العربي الفلسطيني، ونادي شباب العروبة، وجمعية العاديات التي تعنى بالتراث، وجمعية الشهباء، ورابطة المحاربين القدماء، وبعض الندوات والأماسي التي تقام في جامعة حلب، وفي فرع شبيبة الثورة وروابطها، والتي تكون عادة في صالة معاوية، بالإضافة لبعض النقابات كنقابة الأطباء، والمعلمين، والحقوقيين، كما يقوم مجلس مدينة حلب سنوياً بتقديم جائزة الباسل لعدد من المبدعين وتقديم جوائز رمزية لهم، وتكريم بعض الأدباء بالتعاون مع مديرية الثقافة وفرع اتحاد الكتاب العرب، مما يدفع بالحركة الأدبية إلى أمام، ويساعد في نهضتها

ويشترك بعض الأدباء في إبداع أكثر من جنس أدبي (شعر - قصة - رواية) وكتابة أكثر من نوع محدد من الشعر، وكما ذكرت من قبل فإن غياب النقد بشكل موضوعي، وغياب النقاد جعل من الشعراء وغيرهم من قاصين وروائيين ما يشبه الطواويس تنفش ريشها متى تشاء، وتدّعي ما تريد، دون قيودٍ أو حدود، مما جعل الحابل يختلط بالنابل، إلا من رحم ربك.. فغياب المقاييس والمعايير في تقييم أي عمل وخاصة الإبداعي منه يجعله في موقع غير صحيح أو غير متوازن، لذلك نجد مثل هذه الدراسات مقتصرة على بعض المبدعين أنفسهم، وعلى المتلقين، والقراء، مما يجعل الموازين والمعايير والأحكام غير دقيقة، ومن الجدير ذكره أيضاً أن نسبة المعلمين والمدرسين كبيرة بالنسبة للمبدعين ومنهم الشعراء، كما أن نسبة الإناث قليلة إذا ما قيست بالذكور، وهذا حال جميع المدن السورية، والعربية أيضاً.

واستناداً لما ذكر فإن كل متتبّع للحركة الأدبية في مدينة حلب لا سيّما الشعر، يتهيّب كثيراً قبل أن يفكّر في رصد أي حركة أدبية مهما كان نوعها، كما يتهيّب من ذكر الأسماء، كي لا يقع في متاهات ولوم الأدباء أنفسهم، بسبب عدم وضوح الرؤيا بمستوياتهم لأسباب تتعلق بالدارس والمدروس معاً، ومن يمتلك الجرأة في إبداء الرأي بصراحة، ويبين وجهات نظره في إبداعاتهم قد يتعرض للنقد اللاذع واللوم الشديد الذي يؤدي في أغلب الأوقات إلى خسارة زملائه وأصدقائه، مع أنهم يكررون في مجالسهم ومن خلال الأمسيات الأدبية مقولة "صديقك من صدقك لا من صدقك" لكن النتيجة تكون كما يقول أحدهم "يا حق ما تركت لي صاحباً" وهذا ما ينسحب علينا بالضبط، ولهذه الأسباب ولغيرها نجد الحدود مفتوحة ومغلقة بالوقت نفسه، ولا إشارات للتوقف أو المرور بأنواعها الثلاثة مما يجعل الخوض في مثل هذا الأمر مدعاة للخطر وأي خطر..؟!

وعليه يعمد أكثر الدارسين إلى التعميم في أحكامهم بعيداً عن التخصيص، لأنها الطريق الوحيدة التي توصل للسلامة، والنجاة، ويُكتفى بالتلميح بدلاً عن التصريح، ومع ذلك فالمنابر الثقافية والأدبية عديدة وتكفي المثقفين والمفكرين والأدباء، كما تستقطب العديد من المفكرين والأدباء لزيارة مدينة حلب، والمشاركة في نشاطاتها وفق دعوات توجّه لهم عادة، من خلال البرامج المعدّة من قبل الجهات صاحبة الشأن.

أعود إلى جزئيات البحث أو الدراسة بعد هذا التمهيد المطوّل للأنواع الشعرية وأسماء الشعراء الذين ينتمون إلى كل نوع منها، وأعتذر سلفاً من بعض الشعراء الذين قد لا ترد أسماؤهم في هذه الدراسة سهواً،

فالكمال في أي عمل مستحيل، على الرغم من محاولة ذكر كل من عرفته أو سمعت به، سواء كان له مجموعات شعرية مطبوعة، أو لديه مخطوط موافق عليه ولمّا يقم بطباعته بعد، أو من سبق له ونشر بعض نتاجه في الصحف والمجلات المحلية، مع الإشارة لكل من يكتب أكثر من نوع شعري، والاقتصار على ذكر اسمه مرة واحدة في النوع الأكثر نتاجاً، كي لا يتكرر اسم الشاعر في أكثر من مكان.

الشعر الكلاسيكي:

وهو الشعر الخليلي الخاضع للبحور، أو التقليدي، أو العامودي كما يطلق عليه بعضهم، حيث نجد نسبة كبيرة من الشعراء، سواء منهم كبار السن أو الشباب، وهم (محمد كمال- أحمد ديبة - محمد خطيب عيان- علي الزيبق- محمود كلزي- محمد هلال فخرو- محمد سعيد فخرو- محمد ملاّ غزيّل- فيحاء العاشق- وفاء الدين مؤقت- أحمد بابلي- أنور عدي- عبود كنجو- محمود أسد- عادل مصري- ميشيل أديب- محمد حسام دويدري- محمد جميل حافظ- الياس هدايا- محمد عارف جعلوك- عبد الرزاق معروف- جورج عيسى- خالد رستم- أحمد هويس- هادي بكار- خليل عارف جعلوك- محمد كامل اسكيف- نبيه الشعار- منذر الشعار- محمد بهير العاني- محمد مرعي مهنا- عبد الجليل عليّان- علي الجاسم- ظافر دركوشي- غازي العايد- عبد الرحمن العلي- عمار العلي- محمد حافظ- هاشم ضاي- فريد نظاريان- أحمد عبد اللطيف- مصطفى الزايد- مصطفى حسين- سمير بكرو- عدنان خطيب- محمد شيخو النبهان- محمد نائل حريري- عبد السلام كنعان- عصمت ديري- محمد ديبة- فراس ديبة .. الخ)

يلتزم هؤلاء الشعراء عموماً بالشكل القديم للقصيدة ذات الشطرين، بصوتها الإنشادي المباشر (الغنائي) ولغته التقريرية، وصوره المستدعاة من الذاكرة الشعرية الذاتية، إلى حد تكاد تكون فيه القصيدة في أغلب الأوقات مجرد اهتزازات صوتية انفعالية، تضحي بالشكل على حساب المضمون، وقرار التوصيل، تحت مستلزمات ودواعي الالتزام القومي والوطني، ومن ثم الاجتماعي والوجداني والغزلي، وكل ما يتعلق بشعر المناسبات، من مديح ورثاء، ولا بد من التنويه بأن عدداً كبيراً منهم يتوجهون بقصائدهم نحو الحداثة، ويعملون باستمرار على تطوير وتجديد أدواتهم الإبداعية، لمجاراة قصيدة التفعيلة وما وصلت إليه، وكذلك محاولاتهم الدائمة للدخول إلى عوالم الحداثة الشعرية مع المحافظة على التواصل مع الأصالة والتراث، والجذور، كما نجد كثيراً منهم يعبرون بالصور الحسية والحركية والرمزية، والمستمدة من استبطان الذاكرة للمكان والزمان، التاريخي والواقعي، بالإضافة إلى إدخال بعض الفنيات مثل الانزياحات الدلالية اللغوية التركيبية الحديثة، ومع ذلك فإن القسم الأكبر منهم لم يتمكنوا حتى الآن إلى ما يتطلع إليه بعض النقاد من وصول القصيدة العامودية إلى المستوى اللائق بها بحيث تقترب بمستوياتها الفنية إلى مصاف قصائد بعض الشعراء الكبار في الوطن العربي كالشاعر عمر أبو ريشة، أو الشاعر عبد الله البردوني، وبدوي الجبل، وغيره من الشعراء الذين تركوا بصمات واضحة على مثل هذا الشعر.. ومع ذلك فهناك شريحة كبيرة ممن يكتب القصيدة التقليدية لا يزالون في ركن النظم والمباشرة، يجترون قصائدهم دون تطوير أو تجديد. فلا تحس وأنت تقرأ لهم بشيء من الشعرية أو الشاعرية، حتى أنهم يغلقون الأبواب

والشرفات على أنفسهم، ويقبعون في أبراجهم العاجية المغلقة.

وهنا أمر لا بد من الاعتراف به وإقراره، وهو أن للشعراء الذين يكتبون قصيدة التفعيلة بالإضافة إلى القصيدة التقليدية دوراً هاماً في تطوير القصيدة الموزونة وفي هذه المرحلة بالذات، لاشتغالهم في الأصالة والحداثة معاً، وأذكر منهم الشاعر محمود علي سعيد، والشاعر محمد جلال قضيماتي على سبيل المثال وليس التحديد، ومثل هؤلاء يضيعون الكثير على فنية القصيدة الكلاسيكية بلا أدنى شك.

ولا بد من ضرب بعض الأمثلة على الشعر العامودي، فالشاعر محمود محمد كلزي يقول في قصيدة "جنى" :

ساءلتها والروح مني دامعة
ما بالها؟.. فبكت وقالت رابعه
وتناثرت نظراتها في خيبة
فحضنتها وهمستُ بل هي رائعه

إلى أن يقول:

هي كوكبٌ وأكاد أوقن أنها
لمّا رآها البدر عضّ أصابعه

أما الشاعر محمد كمال فيقول في قصيدة "أين..؟" من مجموعته الشعرية "حريق الفصول" :

لا تسألوا الشاعر عن سرّه
فقد طواه الصمت في غمرهِ
مسكنه بين ضلوع الدجى
وتنقل الأشباح من شعره
أين الربيع الغضّ، أين السنا
ورقّة العطر على فجره..

شعر التفعيلة

وله العديد من التسميات أيضاً (الحر، الإيقاع) وهو يحمل إيقاعات خارجية مولّدة من بعض بحور الشعر الخليلية ذات التفعيلة الواحدة، المكررة، وقد أخذ أشكالاً أخرى من حيث التلوين والتنويع في الإيقاع في كل مقطع، وتجاوز في بعض الأحيان إيقاع التفعيلة الواحدة، وهناك عدد كبير من الشعراء يكتبون هذا النوع من الشعر في حلب وهم (عصام ترشحاني- محمود علي السعيد- مصطفى أحمد النجار- أحمد دوغان- سعيد رجّو- يوسف طافش- نظيم أبو حسان- زكريا مصاص- فواز حجو- محمد الزينو السلوم- عامر الدبك- بهيجة إدلبي- محمد قدري مايو- إبراهيم كسار- علي الشريف- غالية خوجة- محمد جمال طحان- محمد مضر سخيطة- محمد زكريا حيدر- المأمون قباني- محمد نوري خورشيد- لميس حجة- أديل برشيني- حسن عاصي الشيخ- ندى الدانا- محمد أبو معتوق- محمد صهيب عنجريني- شادي مقرش- عروبة بكور- منى بدوي..)

والحق يقال، فقد درج هذا النوع من الشعر وكثر مريدوه في الآونة الأخيرة، لسعة فضاءاته، ويعتبر هذا الشعر من النوع الغنائي أيضاً، يحمل في طياته رؤيا واقعية وحلمية، ودلالات وجدانية، ونفسية، في أكثر الأحيان، وكثير ما يعتمد على الثنائيات /الفرح- الحزن، الحياة- الموت، الليل - النهار..الخ/ ومثل هذا الشعر غالباً ما يكون مشحوناً بحرارة إيقاعية، صوتية، موسيقية، لإنشادية مركزة بحيث يستند في أكثره على المثيولوجيا والأسطورة، والتضمين، والتناص، والتكرار، وطول الجملة الشعرية وقصرها، لكنه يحقق في إيقاعاته الخارجية موسيقى متنوعة وملوّنة، ما بين الطول والقصر، والمقطعية، كما يحتوي على العديد من الدلالات اللغوية التركيبية، تمتزج فيه الذات بالموضوعي والاجتماعي والوجداني، والخاص بالعام، والخارج بالداخل، وهو مليء بالإشارات والرموز والدلالات، وتعطي قراءته تعدّدية الدلالات والمعاني المحتملة، كما تتضافر فيه الإيقاعات الخارجية

بالداخلية، قابع ما بين دوائر الوجدان والعقل معاً، وكذلك فإن قسماً كبيراً منه مكرّس للشعر السياسي والقومي، وخاصة ما يتعلّق بالقضية الفلسطينية وانتفاضاتها، حيث يتداخل ويمتزج الفكر بالعاطفة معاً، وهذا الشعر في غالبيته له طابع التجدد والحداثة ضمن رؤيا واسعة تحمل الكثير من المحمولات الحسية والفكرية، والتخصيب البلاغي من تشبيه وكناية، واستعارة، ومجاز.. الخ، كما يحمل في طياته أشكالاً فنية مختلفة تتعلق بالإيقاع والقافية أو بدونها أحياناً أو بتلوينها، فيسهّل على الشاعر مهمته الإبداعية.

وهناك وفرة في الكم على حساب الكيف في نتاج الشعراء في هذه المرحلة، وفي عددهم أيضاً، وكذلك في عدد المجموعات الشعرية، ويكاد يكون أكثرها مختلطاً وغير واضح المعالم، ولو أردنا الوقوف على عدد الشعراء، وعدد مجموعاتهم الشعرية لصعب علينا إحصاؤها بدقة، وخاصة وأن غياب النقد الموضوعي، يجعلها تعيش ضمن دوامة الغموض وعدم وضوح الرؤيا، ولذا وبسبب صعوبة الإحاطة بنتاج كل هؤلاء المبدعين، أكتفي بالوقوف عند بعض النماذج الدالة على الحركة الشعرية، وفي تواصلها مع خطاب الأصالة أو الحداثة أو كليهما معاً، بحيث يتجلى الهم السياسي والاجتماعي على نحو ملحوظ عند الشعراء بمختلف إبداعاتهم، وقد لوحظ ظهور القصيدة المدوّرة، في هذه المرحلة، إلى جانب القصيدة المقطعية.. ويتميز أيضاً بالشفافية أحياناً، وبالضبابية والغموض في بعض الأحايين، أمّا الصفة الغالبة على مثل هذا الشعر فقد تبدّت باحتراق الذات، والحزن في أغلب الأحيان، كما أن نهايات بعض القصائد غالباً ما تكون حلمية، مفتوحة على زمن المتلقي وفاعليته القرائية، وفي مثل هذا الشعر يمتزج فيه الإيقاع الخارجي بالتناغم الداخلي بحيث يشكل سمفونية متعددة الألوان، كما تتبدّى قدرة القصيدة على رسم الحالة الشعرية من خلال الصور المتتابعة حيناً وبالتشخيص أو بالتجريد أو الرمز حيناً آخر، وقليلاً ما يتداخل مثل هذا النوع من الشعر في المقاطع مع الشعر الخليلي أو النثري في القصيدة الواحدة، كما برزت عند بعض الشعراء المجدّدين ميّزة كتابة قصيدة الومضة التي غالباً ما تحمل الدهشة في نهايتها.

أما الأنا الشعرية فكثيراً ما تتصدّر قصائد التفعيلة التي تختزل الذات والعالم، سواء من موقعه أو وهو مقيم داخل العالم يحلل ويصور ويحلم، أمّا المسار الفني للقصيدة فهو غالباً مرتكز على صراع الأضداد والثنائيات، أمّا الحوار فقليلاً ما تدخل في مثل هذه القصائد، وكثيراً ما يتداخل القومي بالوطني بالاجتماعي، بالوجداني، والذاتي في القصيدة الواحدة لذا سمّاها بعضهم بالكليات المطلقة للقصيدة.. ومع ذلك فهناك العديد من هؤلاء الشعراء في مدينة حلب يعتقدون أن شعر التفعيلة مجرّد إيقاع مختلف عن أوزان البحور الشعرية فقط دون النظر في فنيته وما يتطلبه مثل هذا الشعر كما ذكرت، من قبل، فالشكل هنا لا يرتبط بالإيقاع فقط وإنما بالأمور التي سبق وذكرتها جميعاً، وحتى في اللغة والمضمون، وأسلوب الدخول والخروج من القصيدة

وأخيراً لا بد من الاعتراف أن للمرأة حظاً واسعاً ووفيراً في مثل هذا الشعر، والبعض منه يرمز إلى الأرض أو الوطن، من خلال محاكاة المرأة، وتعتبر نسبة الشاعرات أقل بكثير من نسبة الشعراء في هذه المرحلة، وكما هي في كل زمان ومكان بقي أن أذكر أن أول من كتب مثل هذا النوع من الشعر نازك الملائكة، وبدر شاكر السياب، كما أن للشعر الصوفي نصيباً في شعر التفعيلة، ويأتي هذا الأخير بالدرجة الثانية بعد الشعر الكلاسيكي التقليدي.

ويمكن أن نضرب بعض الأمثلة على ذلك، فالشاعر عصام ترشحاني يقول في قصيدة "مطارحات الأرق" :

قال اتحد بجميع أعضائي
لترسم لهفتينِ لعودة القطرس
ومضى إلى جبلٍ يكلمني
ناديت
لم يفتح لشرفتنا أحدْ
وسعى إلى دمه الزبدْ
طاف الجسدْ
وعلى رؤوس جهاته جثم القذى
فتحت مقابرها السماء وأطبقت
فوق البلدْ

أمّا الشاعر محمد جلال قضيماتي ففي قصيدة أوراق الخريف يقول:

زهّر الحزنِ على جفنِ الردى
فانهل آيات تجلت
في ضمير الوحي تتلو
مصحف الكون على روض الزمانْ
وتغنّى الطيف في ألحانٍ غريباً
ينهل العمر كؤوساً
من خمور الشوق لا تسكر إلاّ
أمنيات الروح أو زهو الهوانْ

أما الشاعر مصطفى أحمد النجار فيقول في قصيدة "الرجل الذي يبحث عن الطفولة" :

العصافير امتداد لرؤاي
والفراشات ابتداء لتلاوين خيالي
لا .. فلا توقظ شياطين شقاي
فأنا أتكاثر في حلمي
أتجدّد، تلبسني الأزهار وذكرى قريتنا
صبيتها وعذاراها..

الشعر النثري أو النثر الشعري

أو ما يسمّيه بعضهم بالنص، وهو يشكل انعطافة جدلية تمثّلت في قصيدة النثر أو النص الشعري، وكما هو معلوم فلا زال هذا النوع من الشعر قيد التجربة حتى الآن، كما مرّ من قبل بشعر التفعيلة، وقد تنوّعت هذه النصوص بين الطول والقصر، واختلفت التسميات بين النثر الشعري والشعر النثري، وغيره من التسميات الأخرى، فأصبحت الرؤيا مركزة والتعبير بالصور المركبة، وابتعدت عنِ الحدث، وأخذ بعضها شكلا ملحمياً أو درامياً فاشتغلت على اليومي وعلى الشخصي الخاص، ومثل هذا النوع من الشعر قريب إلى الترجمات، ولا يحمل في أكثره إيقاعات خارجية، بل يكتفي بالتناغم الداخلي فقط، وفي بعض الأحيان.. كما أن العديد من هذه النصوص اتسمت بالقصر الذي يشبه الومضة أو البرقية من حيث التركيز والكثافة، ومن خلال ضميري المتكلم المفرد، وحركة الحاضر المتصلة في انسجام مع تكثيف عنوان القصيدة، وهو بالطبع لا يحمل ولا يعنى بالوزن أو الإيقاع الخارجي مطلقاً، ومن هؤلاء الشعراء (ليلى مقدسي- فائز العراقي- عباس حيروقة- أحمد مشول- عفاف الرشيد- ليلى أورفه لي- عبد القادر أبو رحمة- أحمد العلي- محمد المأمون الجابري- أحمد حسين حميدان- محمد شيخ عثمان- ميشيل أديب- أحمد علي حشاش- خالد آغا القلعة- فايز مقدسي- سامر كبة- محمد جمعة سماقية ..)

يحمل هذا النوع من الشعر دلالات تأويلية يأتي بعضها بلغة عادية جداً، خالية من اللغة البلاغية، فيها الدهشة في المضمون على حساب الشكل والفنية، وكثير من هذه النصوص تحمل في ذاتها حالات النفس الحالمة، وخواطر الذات، وهلوسات الجنون، بحيث لا يتمكن الشاعر في كثير من الأحيان معرفة ما يكتب، وكثيراً ما تنشطر الأنا الشعرية في مثل هذه الحالات على نظم وأنساق شعرية تعبيرية خاصة، حتى لو أدّى هذا التشظي إلى الدخول في المحظور في بعض الأحيان لغة ومعنى معاً، وقد يؤدّي إلى

الغرائبية والسريالية المكثفة، المشبعة بالإبهام والغموض، ويبرز أيضاً في بعض النصوص النثرية الاختلاف الكبير بين أرضيّة المنجز الشعري الحداثي وبين الأنواع الأخرى.

تتحرك قصيدة النثر في فضاءات النثر، وغالباً ما تتألف من عدة مقاطع نجمية أو مرقمة، بحيث يسيطر ضمير المتكلم على معظم النصوص، وتشكل الدلالة الإيقاعية بالتكرار وبتواتر الحروف، كما تشكل دلالة المعنى بالتناص والثنائيات، ليُختم النص غالباً بالغموض والمتاهة.. والغريب في الأمر أن مثل هذه النصوص الشعرية لا يمكن الاتفاق على نظام معين في توزيع جملها الشعرية في القصيدة، حالها حال شعر التفعيلة، فقد يحتوي السطر على كلمة، وقد تتوزّع الجملة الشعرية على سطر أو أكثر، وقد يحتل حرف الجر سطراً بكامله، ومع أن القصيدة النثرية كادت تستقر في خطاب الحداثة الشعري، وأصبح لها رموزها وشروطها الفنية إلاّ أنها لازالت قيد التجربة ولم يستقم عودها بعد، مع كثرة روّادها وخاصة في دول الخليج بالذات، حيث أصبح لها شأن كبير، نلمس ذلك في الدوريات الخليجية بشكل مستمر.

لقد أحدثت قصيدة النثر قطيعة مع الوزن والإيقاع الموسيقي الخارجي، وأسست إيقاعها الداخلي الخاص، وبنيتها الفنية الخاصة أيضاً، وأحلّت عين الشاعر محل صوته، وحلّت الذات الشعرية محل الواقع الخارجي، وأصبحت تُقرأ أكثر مما تسمع، بحيث يتبدّى فيها إخفاء المرئي باللامرئي، وتوليد اللامرئي في المرئي، وثمة انسجام في إنتاج الدلالة التأويلية من تضامر دلالة المعنى ودلالة الإيقاع في أكثر الأحيان.

والأمثلة الشعرية كثيرة في ذلك، فالشاعرة "ليلى مقدسي" تقول في قصيدة "الصمت" : ماذا أقول عن غمامة الورد..؟

وهي تشهق بالثمر
وتعلمني فاتحة الجنون
اغسليني يا همسات النور
عرّي سحب الغياب
أعرفك.. إنك في الحلم
مهجورة في ذوبان الحضور..

أما الشاعر "عباس حيروقة" ففي قصيدة "يا الله" يقول :

مضرجاً بالنحيب الأخير سأمضي
ويمضي الفراتِ وما بعده
إلى كل دنِ
نُغلق الشرفات في دمنا
المطل على الردى
فيأتي الهجير يرسمنا نوىً
بالذاكرة..

ومما لا شك فيه أن هناك العديد من هؤلاء الشعراء يعتبرون قصيدة النثر مجرّد صف كلمات خالية من الوزن، وتنطيعاً وفق أسطر على شكل قصيدة، وهم بذلك يغرقون في تيههم وجهلهم بالتأكيد، حتى أنهم لا يميّزون بين النثر الشعري، والشعر النثري أبداً، مع وجود بحوث ودراسات عديدة وخاصة ما كانت تصدره "مجلة شعر" في السابق من قبل نقاد وروّاد مثل هذا النوع من الشعر، ويؤكد بعض الذين يكتبون هذا الشعر أنه أصعب بكثير من كتابة غيره من الشعر التقليدي، أو شعر التفعيلة، ومن هنا ولهذه الأسباب وغيرها لا يزال هذا النوع من الشعر قيد التجربة حتى الآن وباعتراف أكثر النقاد.

وفي الختام يمكنني القول: لقد كانت وقفتي مع الحركة الشعرية في حلب في نهاية القرن العشرين، وبداية القرن الواحد والعشرين، وقفة موجزة ومكثّفة، الهدف منها رسم شبه بانوراما دالة على مواقع الحركة الشعرية وتجلّياتها، وتوثيق أكثر شعرائها، سواء منهم الكبار أو الشباب، بغض النظر عمن أصدر عدداً من المجموعات الشعرية، أو

لديه مخطوطات لم تطبع بعد، أو يكتفي بالنشر فقط، أو كان من أهالي مدينة حلب أو ريفها، أو من أقام فيها بظروف وظيفته أو سكنه، وقد جاءت الأسماء والأمثلة الشعرية بشكل اختياري بعيدا عن مستوى الإبداعات، غير منهجية، الغاية منها كما سبق وذكرت توثيق هذه المرحلة لا أكثر، مبيّناً بحدود الإمكانات المتاحة والمتوفرة من معلومات ومراجع، وباعتقادي أنه ليس المهم أن يكتب الشاعر أي نوع من الشعر أو أكثر من نوع، لكن المهم هو أن يكتب شعراً، والحالة الشعرية هي التي تفرض أو تختار لنفسها الثوب واللون المناسب وليس الشاعر، وحبذا لو كان الشعر الذي يكتب قصيدة النثر أن يكون على دراية ومعرفة تامة بالبحور الشعرية وإيقاعات شعر التفعيلة، قبل أن يلج باب قصيدة النثر، وقد يعترض البعض على مثل هذا الأمر، والجواب هو نفس حاجة الذي يدرس الهندسة أو الطب إلى أصول النحو والصرف، والرياضيات، والتاريخ والجغرافيا وغيرها من المواد قبل أن يدخل في بوابة الاختصاص، فكيف ونحن في عالم وفضاءات الشعر..؟!

ولا أجد في مثل هذه الدراسة متّسعاً كافياً لدراسة بعض الشعراء في مدينة حلب، وقد بلغت دراساتي المستقلة بحدود /ثلاثين/ دراسة لشعراء من حلب خلال أقل من خمس سنوات، هذا بالإضافة لدراسة عدد آخر من الأدباء القاصين والروائيين في نفس المدينة وفاء ومحبة لأبناء بلدي، وقد وثّقت أكثر هذه الدراسات في مؤلف "قراءة في الشعر العربي المعاصر" و "شعراء تحت الضوء" وفي كتاب مشترك" أدباء من حلب في النصف الثاني من القرن العشرين" والذي سيعقبه كتاب آخر في المستقبل القريب إن شاء الله، وسأستمر في هذه الدراسات حتى تشمل أكبر عدد من المدروسين الشعراء في مدينة حلب وغيرها من المدن السورية، وفي الوطن العربي أيضاً، كما أنه من الواجب الاعتراف بأن لصحيفة "الجماهير" التي تصدر في مدينة حلب فضلاً على أكثر الأدباء لإتاحتها الفرصة لجميع الأدباء على مختلف أجناس إبداعاتهم، ومستوياتهم بالنشر في صفحتها الثقافية المخصصة لمثل هذه الإبداعات، وحتى الواعدة منها، هذا بالإضافة إلى الدوريات التي تصدر في دمشق، وفي بعض الدول العربية الأخرى وخاصة في لبنان، والسعودية، ومصر، ودول الخليج، والأردن.. وأحب أن أشير في آخر الدراسة أن عدد المنتسبين إلى اتحاد الكتاب العرب في مدينة حلب من الشعراء لا يتجاوز أصابع اليدين، ولا أدري لماذا توضع إشارات حمراء في وجه الراغبين في الانتساب، مع أن بعضهم له إصدارات عديدة وينشر في الدوريات المحلية والعربية منذ عشرات السنين، ويعترف الجميع بإبداعاته، ونتاجه..

كما تعتبر هذه الدراسة بمثابة دعوة عامة للشعراء الواردة أسماءهم والذين لم يذكروا سهواً لإرسال قصيدة واحدة لا تتجاوز الصفحة بالإضافة لبطاقة تعريف خاصة بالشاعر لا تتجاوز الصفحة أيضاً مرفقة بصورة شخصية واحدة، مع رقم هاتفه وعنوانه، استكمالا وتقدمة لمشروع كتاب موسّع عن الحركة الشعرية في حلب، على أن ترسل على العنوان التالي : (حلب - ص.ب ٤٩٧٦) خلال ثلاثة أشهر من تاريخه، وستخصص نسخة واحدة لكل مشارك.

وأخيراً أكرر اعتذاري لكل من لم يذكر اسمه سهوا، ولكل من يجد في هذه الدراسة نقصاً أو ضعفاً لعلّ هذه الدراسة تكون دافعاً وحافزاً ومحرّضاً لدراسات جديدة تكون أكثر دقّة وتوضيحاً وموضوعيةً، تغني البحث، وتضيف ما هو مفيد وجديد، لمدينة مثل مدينة حلب العريقة بأصالتها وتراثها، وكما يقال: "أن تشعل شمعة، خير من أن تلعن الظلام ألف مرة" .



رأى أفلاطون في الموسيقى والحكام

يعنى أفلاطون في (جمهوريته) عناية كبيرة بالموسيقى، ويذكر تأثيرها الحثيث في النفس والأخلاق، ويجعلها من ضرورات الحياة لتهذيب النفس. ويشترط على الحكام أن يثقفوا أنفسهم بالموسيقى بل أن يتولوا الأحكام، حتى تلين طباعهم، وتدمث أخلاقهم وينفعوا نفوسهم والدولة معا، فيقول: "... وتمنحنهم ولا امتحان الذهب بالنار، لنرى أصلب عودهم في كل الأحوال، فلا يخدعهم التدجيل، فتثبت كياسة تصرفهم حسن الإدارة لأنفسهم وللموسيقى التي ثقفوها، مبرهنين في كل حادثة على محافظتهم على قوانين اللحن والإيقاع، ساعين جهدهم ليكونوا أعظم النافعين لأنفسهم وللدولة، فمن جاز الامتحان، وخرج من التجربة سليما، فهو الذي يختاره حاكما ومديرا ويجب إكرامه في حياته وفي مماته، ويخول أعظم الامتيازات".

ورأي أفلاطون في الموسيقى رأي موسيقي خبير اضطلع بها ومارسها وألف فيها كتبا. وهو عندما نظم "جمهوريته" يصرح بأن الحاكم يجب أن يكون فلسفي النزعة، عظيم الحماسة، سريع التنفيذ، شديد المراس، كما يجعل الموسيقى والرياضة ركني التهذيب للحكام. فالرياضة للجسد والموسيقى للعقل. وهو يفضل تقديم الموسيقى ويؤثر الشروع بتهذيب الحكام بالموسيقى قبل تهذيبهم الرياضي.

وأفلاطون يكره أغاني الميوعة والرخاوة. وينبذ ألحان الحزن والكسل. وهو يشيد بأغاني البطولة والحماسة، وألحان الرجولة والكرامة. وهو يثبت الموسيقي في المقام الأول في نظام "جمهوريته" . ولا غرو فقد كان موسيقيا يتذوق الموسيقى ويتفهمها ويزاولها، ويقدرها قدرها، حتى إنه جعلها في مقدمة أسس الدولة التي يجب أن يتثقف بها الحكام فضلا عن الشعب.

وكأن خلفاء الدولة الأموية، وخلفاء الدولة العباسية، اطلعوا على رأي أفلاطون في وجوب تهذيب نفوس الحكام بالموسيقى، وشرطه أن يتثقفوا بها كي يصبحوا صالحين

لحكم الشعب، فإذا بهم يعتنقون رأيه، ويطبقونه على أنفسهم، بل إنهم لم يكتفوا بذلك، فمارسوا الفن ممارسة عملية لفرط شغفهم به، وبرعوا فيه حيث نظموا الأغاني، ولحنوها وغنوها في مجالسهم الخاصة، وعزفوا على الآلات الموسيقية، وأفسحوا مكاناً رحيباً للمغنين في قصورهم، واتخذوا منهم ندماء وسماراً، وأكرموهم وأثابوهم وأجزوا لهم المنح والمكافآت. وكان لهم معهم مواقف ونوادر لطيفة، ومساجلات ومسامرات طريفة، تشف عن غرامهم بالغناء، واحترامهم للمغنين. وكتب الأدب والتاريخ العربي حافلة بأخبارهم "كالأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني و"نهاية الأرب في فنون العرب" للنويري و "العقد الفريد" لابن عبد ربه، وغيرها، مما يدل بوضوح على تأصل حب الغناء في قلوبهم. فقد كان لكل خليفة وأمير ووزير وغني جوار وقيان في قصره، يقضي بينهن أوقات فراغه في السمر واللهو والشراب والغناء والعبث. وكن يحذقن فضلا عن الغناء والعزف فنون الأدب من شعر ورواية وتاريخ.

خلفاء العصر الأموي والغناء

عمر بن عبد العزيز

أول من تغنى من الخلفاء، الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز، خلال حكمه الحجاز، إذ تغنى بسبع أغان تغز بها جميعها بسعاد. وكان يتمتع بصوت جميل، وصنعة محكمة، وأداء حسن، وتلحين متقن. ومن غنائه هذا الشعر وهو لجرير، ولحنه ثقيل أول مطلق في مجرى البنصر:

ألما صاحبيَّ نزر سعادا
لوشك فراقها وذرا البعادا
لعمرك إن نفع سعاد عني
لمصروف ونفعي عن سعادا
إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى
ومروان الذي رفع العمادا

ومن غنائه في سعاد، ولحنه خفيف ثقيل، هذا الشعر:

علق القلب سعادا
عادت القلب فعادا
كلما عوتب فيها
أو نهي عنها تمادى
وهو مشغوف بسعدى
قد عصى فيها وزادا

ومن أغانيه هذا الشعر، ولحنه رمل مطلق:

يا سعاد التي سبتني فؤادي
ورقادي هي لعيني رقادي

ثم هذا الغناء، ولحنه رمل بالسبابة في مجرى البنصر:

حظ عيني من سعاد
أبداً طول السهاد

يزيد بن عبد الملك

ومن الخلفاء الأمويين الذين ولعوا بالغناء وتغنوا به، يزيد بن عبد الملك. فقد شغف المغنية حبابة ذات الصوت الساحر، وكان ينظم الشعر ويلحنه ويغنيه. ومن أشهر أغانيه تغزلا "بحبابة" هذان البيتان، ولحنهما ثقيل أو:

أبلغ حبابة أسقى ربعها المطر
ما للفؤاد سوى ذكراكم وطر
إن سار صحبي لم أمل بذكركم
أو عرسوا فهموم النفس والفكر

وقد تغنى يزيد بن عبد الملك "بحبابة" بهذين البيتين عندما رآها لأول مرة وهو نازح عن الحجاز، فأغرم بها، ولكنه لم يجرؤ على ابتياعها خوفاً من أخيه سليمان بن عبد الملك، أو من أخيه عمر بن عبد العزيز، فغناهما بعده

"معبد" و "حبابة" وغيرهما من مشاهير المغنين والمغنيات. ثم اشترى "حبابة" بعد ذلك وقضى معها زمناً يستمتع بها وبصوتها الرخيم، إلى أن كانت ذات يوم معه تقذف حبة رمان إلى فمها فشرقت وماتت، فحزن عليها حزناً شديداً.

الوليد بن يزيد

وكان الوليد بن يزيد شغوفاً بالغناء كأبيه، ذا صوت جميل وصنعة متقنة، وله مواقف فنية عديدة تدل على فرط غرامه بالغناء، وكان يعزف على العود ويضرب بالطبل، ويسير بالدف على طريقة أهل الحجاز، ومن أغانيه المشهورة هذان البيتان، وهما من نظمه وتلحينه ولحنهما خفيف رمل:

وصفراء في الكأس كالزعفران
سباها التجيبي من عسقلان
تريك القذاة وعرض الإنا
ء ستر لها دون لمس البنان

خلفاء العصر العباسي والغناء

العباس الواثق بالله

وبلغ الغناء العربي قمة مجده في عصر الدولة العباسية فكان أول من اشتهر به من الخلفاء العباسيين الواثق بالله، وقد لحن مائة أغنية جميلة جيدة الصنعة، جميعها في مستوى رفيع من الفن، وكان أحذق من غنى على العود وأبرع من عزف عليه وكان يغني شعره وشعر غيره. وكان له مواقف ونوادر في الغناء كثيرة، منها أنه كان يجلس مع طائفة من المغنين فيبدؤهم في الغناء والعزف على العود، فيتبعونه، ويقضي مجالس طرب وسمر حافلة.

وقد تحدث إسحق الموصلي، بأنه دخل يوماً على الواثق بالله في مجلس خاص، فسمع غناء أقسم بأنه لم يسمع مثله البتة في حياته. وكان الواثق حينئذ يغني شعراً لأبي العتاهية من تلحينه، وهو يوقع على العود. فغناه ثلاث مرات بثلاثة ألحان مختلفة وهو:

أضحت قبورهم من بعد عزهم
تسفي عليها الصبا والحرجف الشمل
لا يدفعون هواماً عن وجوههم
كأنهم خشب بالقاع منجدل

وقد بلغ من حذق الواثق لصنعة الغناء، أن حدث إسحق الموصلي قال:
لما صنعت لحني في:
خليليّ عوجا من صدور الرواحل
غنيته الواثق، فاستحسنه وعجب من صحة قسمته، ومكث أياماً، ثم قال لي: يا إسحق، قد صنعت لحناً في صوتك وفي إيقاعه، وأمر فغنيت به، فقلت: يا أمير المؤمنين، بغضت إليّ لحني وسمجته عندي. وقد كنت استأذنته مرات في الانحدار إلى بغداد بعد أن ألقيت اللحن الذي كان أمرني بصنعه في :
لقد بخلت حتى لو أني سألتها
فمنعني ودفعني بذلك. فلما صنع لحنه الرمل في:
خليلي عوجاً من صدور الرواحل
"قلت له: يا أمير المؤمنين، قد والله اقتصصت وزدت. فأذن لي بعد ذلك"

وذكر إسحق أيضاً أنه كان لا يحضر مجلس الواثق أحد أعلم منه بالغناء، كما كان أبرع من غنى بعزف العود، وكان إذا لحن أغنية عرضها على إسحق، فنظر فيها ونقحها، ثم يغنيها الواثق بعد ذلك وكان لإسحق لديه منزلة سامية بين المغنين. وقد ألف إسحق عن فن الواثق: "كتاب الاختيار من الأغاني للواثق"

وكانت له مجالس طرب وسمر خاصة شائقة، يحضرها المغنون، فلا يلبثون يتغنون ويشربون ويسمرون، والواثق يساهم معهم في الغناء والطرب والعبث. وقد أسهب في وصف هذه المجالس أبو الفرج الأصفهاني في كتابه "الأغاني".

المنتصر بالله

ولع المنتصر بالله بالغناء قبل توليه الخلافة، وكان ينظم الشعر ويلحنه ثم يأمر المغنين بغنائه. فلما ولي الخلافة أمر بطمس ماضيه الفني.

ومن تلحينه في شعره، وهو من الثقيل الأول المذموم:

سقيت كأساً كشفت
عن ناظري الخمُرا

ومن شعره وتلحينه وغنائه هذا الشعر، ولحنه ثاني ثقيل:

متى ترفع الأيام من قد وضعته
وينقاد لي دهر عليّ جموح
أعل نفسي بالرجاء وإنني
لأغدو على ما ساءني وأروح

وكان له مجالس طرب مؤنسة، كان يغني فيها ويعزف على العود، ويتنادر بها مع المغنين، وينافسهم. وكان يعطف عليهم ويجزل لهم العطاء بجوائز وخلع ومبالغ من المال.

المعتز بالله

وكان المعتز بالله يحب الغناء، ويتغنى من شعره وتلحينه ومن شعر سواه، ومن غنائه هذا الشعر لعدي بن الرقاع، ولحنه خفيف رمل:

لعمري لقد أصحرت خيلنا
بأكناف دجة للمعصب
فمن يك منا يبت آمناً
ومن يك من غيرنا يهرب

وكان له مع المغنين والقيان نوادر جمة.

المعتمد على الله

وكان المعتمد على الله جميل الصوت ولوعاً بالغناء. وكان يجيده ويتقن التلحين.
ومن أغانيه في شعر الفرزدق

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً
مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

المعتضد بالله

ورث حب الغناء عن أبيه المعتمد، ولقد جمع النغمات العشر في أغنية لحنها في شعر دريد بن الصمة وهو:

يا ليتني فيها جذع
أخب فيها وأضع

وهذا اللحن نادر في الفن، قد أبدع فيه المعتضد بالله وأعجب. وكان المعتضد حسن الصنعة، لحن أغاني سبق أن لحنها مشاهير المغنين القدماء. وعارضهم فيها بتلحينه فأدهش وأطرب. ومما لحنه هذا الشعر من الثقيل الأول بالبنصر:

أما القطاة فإني سوف أنعتها
نعتاً يوافق نعتي بعض ما فيها

فأبدع في صنعته وتلحينه إبداعاً بزَّ فيه جميع مشاهير المغنين الذين سبق لهم تلحينه، مثل معبد وابن محرز ونشيط ومالك وسنان وعمر الوادي وابن جامع وعلوية وإبراهيم الموصلي وإسحق الموصلي.
ومن أجمل ما لحنه هذا العشر وهو لإبرهيم بن العباس، ولحنه ثقيل أول:

أناة فإن لم تغن عقب بعدها
وعيداً فمن لم يغن أغنت عزائمه

وقد بلغ ما لحنه المعتضد نحو مائة، جميعها متقنة الصنعة. ومكانته في الغناء بين الخلفاء بعد الواثق بالله.
هؤلاء هم الخلفاء الأمويون والعباسيون الذين أغرموا بالغناء إغراما جعلهم يتخذونه غذاء لأرواحهم وتسلية لنفوسهم، في أوقات فراغهم، من متاعب الحكم ومشاكل الدولة. وقد حققوا أمل أفلاطون بهم، ونفذوا نظريته الفلسفية في الحاكم وضرورة تثقيفه بالموسيقى كي تتهذب أخلاقه ويتثقف عقله، ويكون صالحا لتولي الأحكام.

حنينٌ إلى الذكريات

عبد المجيد عرفة

غـــدوتُ مـــثلَ الـــذي فـــي صـــدْرِهِ حَـــرَجٌ
إذا تصـــعَّدَ فـــي العـــلياءِ يختـــنقُ
يطيـــبُ لـــي العيـــشُ فـــي الأغـــوارِ مُنـــتجَعاً
والمـــاءُ فـــي قلـــبِها يجـــري ويصـــطفِقُ
والحـــورُ يهمِـــسُ فـــي أُذنـــي وتلثُمـــني
نســـائمٌ مِـــنْ شـــفاهِ الغيـــدِ تنطـــلقُ
تســـري مـــع الصـــبح مِـــنْ وادي حمـــاةَ وفـــي
أريجِهـــا مـــن أزاهيـــرِ الـــرُبا عَـــبَقُ
دائـــراتٍ عـــلى العاصـــي تُســـامرُني
كالعاشـــقين إلى أنْ يبسِـــمَ الشَّـــفَقُ
إنْ غـــبْتُ عـــن بـــلدي يومـــاً أذُبْ ألمـــاً
ويكـــبُرُ الهـــمُّ فـــي جنـــبيَّ والـــنزَقُ
فـــلا تلُمْـــني إذا روحـــي بهـــا التصـــقَتْ
فالـــروح بالجســـمِ مـــنذُ الـــبدءِ تلتصـــقُ
جـــبْتُ الـــبلادَ وكـــمْ أبصـــرتُ مـــنْ فِـــتَنٍ
تُغـــري؛ وآياتُهـــا بالحُسْـــنِ تأتـــلِقُ

وكـــمْ تنازَعَـــني شـــوقي إلى بـــلدي
وكـــمْ تناهبـــني التســـهيدُ والأرَقُ
أعيـــشُ فـــي غربـــتي جســـماً وفـــي وطـــني
يعيـــشُ قلـــبي ومـــا بالـــبُعْدِ نفـــترِقُ
مُراســـلاً ينـــبشُ الماضـــي ويكـــتبُ لـــي
عـــن ذكـــرياتي وإنْ لـــم يُسْـــعِفِ الـــورَقُ
بهـــا تـــرى الصـــدق يـــروي عـــنْ طفولتـــنا
وللـــبراءةِ فـــي أحنائـــنا ألَـــقُ
فكـــمْ بـــلا ســـببٍ نُذكـــي مشـــاجرةً
وكـــمْ بـــلا ســـببٍ نصـــفو ونـــتَّفِقُ
لـــمْ يســـلُبِ الحقـــدُ شـــيئاً مـــن ســـعادتِنا
ولـــمْ يُصِـــبْ قلبـــنا مِـــنْ بطشـــهِ رَهَـــقُ
ومـــا عرفـــناهُ إلاّ عـــند مَـــنْ حقـــدوا
وجـــرّبوا نـــارَهُ فـــي العيـــش فاحـــترقوا
ومـــا (حمـــاةٌ) لـــه أرضٌ ولا ســـكنٌ
فأهـــلُها مِـــنْ بـــذورِ الطيـــبِ قـــد خُـــلِقوا
قفـــوتُ أفعـــالَهُمْ فـــازدادَ بـــي شَـــرَفٌ
لمّـــا نـــأى عـــن فـــؤادي الـــزّيفُ والمَـــلَقُ
إلى الـــتي مـــلكتْ روحـــي محبّـــتُها
فصـــرتُ ممّـــنْ بهـــا هـــاموا ومَـــنْ عشـــقوا

إلى الـــتي مـــلأتْ بالـــنورِ باصـــرتي
حـــتى تـــألَّقَ فيهـــا الصـــبحُ والغســـقُ
إلى الأُلى عـــلّموني مـــن أصـــالتها
معـــنى الوفـــاء وفـــي تعـــليمِهِمْ صـــدقوا
إلى الذيـــن لغيـــر الله مـــا خَـــنعوا
وغيـــر ديـــنِ بُـــناةِ المجـــدِ مـــا اعتـــنقوا
إلى حمـــاةَ وأهـــليها وفتنـــتها
أســـوقُ شـــعري وبالأشـــواق أحـــترقُ
وفـــي نســـائمها أُطفـــي الـــلظى وعـــلى
ضـــفافها أزرعُ الـــنجوى فتنبـــثق
أعـــودُ أطـــرقُ أبـــوابَ الـــرجاءِ بهـــا
ولســـتُ أوّلَ مَـــنْ عـــادوا ومـــنْ طـــرقوا
ذقـــتُ الـــبُعادَ وكـــأسُ العيـــشِ جرَّعـــني
مـــرارةَ الـــبُعْدِ وانقـــادتْ لـــيَ الطُـــرّقُ
فليتـــني مـــا هجـــرتُ الـــدارَ عـــنْ طَمَـــعِ
فـــي العيـــشِ ؛ والصـــبُّ يكفـــي قلـــبهُ الـــرَمَقُ
وليـــتها تـــرجعُ الأيّـــامُ باســـمةً
وبالـــبراءةِ والأحـــلامِ تأتـــلقُ
لأنهـــلَ الحُـــبَّ مـــنْ وادي حمـــاةَ ومـــنْ
رياضِـــها للأمـــاني الخُضْـــرِ أنطـــلقُ



أنا من بدل بالكتب الصحابا
لم أجد لي وافياً إلاّ الكتابا

(أحمد شوقي)

القراءة فن يربط بين الكتاب والحياة ويفتح أبواب التفكير والتصور. وهي وسيلة لتوسيع عقولنا وتنمية تفكيرنا الحر وإيجاد ملكة النقد عندنا وزيادة ثقتنا بأنفسنا وبقيمة آرائنا الشخصية.

ويخطئ شبابنا المتعلم عندما يظن أن أيام المدرسة هي مرحلة القراءة والإطلاع. إننا عندما نقطع أكبر مرحلة دراسية لا نكون قد قبضنا على زمام الحياة بل نكون قد بنينا لأنفسنا أساساً صلباً يمكننا أن نثبت عليه أقدامنا لنسير في الحياة نحو الكمال حتى الشوط الأخير فيها. ولا يمكننا أن نساير روح العصر الذي نعيش فيه في مرحلة عمرنا إلاّ بالقراءة المستمرة والوقوف على أسرار الحياة المختلفة التي يميط العلم اللثام عنها كل يوم ويظهر منها شيئاً جديداً كان مجهولاً، ويموت الشخص عقلياً عندما يقف عند حد محدود من ثمار العقل البشري ويتخلف عن قافلة زمانه الذي يعيش فيه.

القراءة ليست غاية في ذاتها وإنما وسيلة للعيش عيشة إنسانية سعيدة عندما ينتفع بما نطالع انتفاعاً عملياً يقودنا إلى عمل متقن وحياة أفضل. ولا فائدة من

القـــراءة التي لا نبغي من ورائها إلاّ حشو رؤوسنا لنظهر أمام الناس أننا ملكنا ناصية العلم والثقافة.

والكتاب وحده لا يصل بنا إلى النمو العقـــلي والنفســـي إلاّ إذا مزجـــنا قراءاتنا بتأملاتـــنا وخبراتـــنا وتجـــاريب الغير وما يجري معنا وحولنا كل يوم وكل ما نراه في الطبيعة ويقع تحت حسنا وإدراكنا. فكل هذه كـــتب مفتوحة يجب ألاّ نهملها عندما نقرأ ونفكر.

قـــال جونســـن: (مـــن يتصور أن الأفكار لا توجد إلاّ في الكتب وأن في الكتب كـــل الأفكـــار، فمـــا هو إلاّ واهم، والأفكار تجـــري مع الأنهار والمجاري، وتطفو على وجه البحر، وتتكسر على شواطئه، وتسكن الـــتلال والجبال، وتسطع مع نور الشمس، وتنســـدل عـــلى أجنحة الظلام، إن الأفكار موجودة في كل زمان ومكان) .

وتصديق كل ما هو مكتوب والأخذ بـــه دون تأمل وبحث عن حقيقة دلالة على جهـــل القارئ وموته العقلي فالقارئ الحي اليقـــظ المتوثب لا يترك كتاباً دون أن يقتله درساً وتأملاً ونقداً.

يقول جون ستوارت مل (يجب على طـــالب الثقافة أن يشعر بأنه حر الفكر، له أن يجـــاري الغيـــر في معتقداتهم، وله أن يخـــالفهم فيها. عليه إذا شك في صحة أمر أن يبحث وينقب جهده ليقف على ما يروقه ويقـــنعه. وعليه أيضاً ألاّ يلقي الكلام على عواهـــنه، وألاّ يـــأخذ دون رويـــة وإعمال فكر).

هـــذه القـــراءة الحيـــة التي تقترن دوامـــاً بالتفكير والتأمل والتجرد من أهواء الـــنفس وعـــدم التعصـــب للعادات العامة والآراء المـــتواترة والعقائد الشائعة تخلق منا الإنسان الحي الكامل الذي يتأثر بثقافة عصـــره ويؤثر فيها بعد أن يكون قد أرضى مـــن الـــبحث حاجـــته وشفى غليله وأحس الحيـــاة وأمعـــن فيها إمعاناً بانصرافه إلى التفكير والملاحظة والاستنباط.

القراءة والثقافة:

الغـــرض الأول مـــن القـــراءة هو الـــتهذيب الكامل للنفس وليس تعبئة الذهن بالمفـــردات والتراكيب أو الحقائق مستقلة مـــنفردة. والقـــراءة الحيّـــة تـــنمّي القوى والمواهب الإنسانية وترقّيها، فإن ما نكسبه مـــن معلومات ونهضمه ونجعله جزءاً من حياتنا الفكرية وتفكيرنا الخاص يكسبنا قوة ذهـــنية تـــتجه بـــنا نحو الإصلاح بأنواعه وتؤهلـــنا إلى الاندماج في مشاكل المجتمع الـــذي نعيـــش فيه وإنهاض ذلك المجتمع وتجديـــده، ويـــزودنا بقـــوة فكرية مهمتها البحث عن الحقيقة أياً كانت والسعي لرقي الإنسان عقلياً وروحياً.

التثقيف الذاتي:

يمكن للقارئ العادي أن يثقّف نفسه لـــو توافـــر لـــه الميل إلى القراءة المفيدة المحـــبوبة الـــتي تهدف إلى غرض ثقافي واضـــح وليست تلك التي يقصد بها التسلية وقطع الوقت.

وقد طرق كثير من المفكرين والفلاسفة موضوع التثقيف الذاتي فقال (لوك) للتهذيب الذاتي ثلاثة طرق تبتدئ الواحدة من حيث تنتهي الأخرى:

الأولى: قراءة الكتب وإدراك معانيها.

الثانية: التفكير والتأمل في تلك الأفكار والمعاني.

الثالثة: التحدث مع الناس بها واختبار سقيمها من صحيحها، وسليمها من فاسدها.

ويرى الفيلسوف النفساني وليم جيمس ثلاثة طرق أخرى للتثقيف الذاتي وهي:

١- إتقان اللغة القومية إتقاناً يُمكّن الفرد من التعبير عما يدور برأسه من أفكار وآراء تعبيراً صحيحاً.

٢- استيعاب ما يمكن استيعابه من أنواع المعارف المختلفة حتى يمكنه مسايرة الثروة العقلية التي وصل إليها عصره.

٣- تكوين مبادئ وعادات تخلق منه رجلاً كاملاً خليقاً بما استوعب من ثقافة.

وهناك شرطين أساسيين لتثقيف النفس بالقراءة وهما:

أولاً: عيِّن اتجاه جهودك ومداها واختر فترة معينة أو موضوعاً معيناً أو مؤلفاً واحداً (أريد أن أعرف شيئاً عن الثورة السورية أو...) وتَفرَّغْ في زمن معين لما وقع عليه اختيارك فإن متعة عظيمة تستفاد من التخصص.

ثانياً: فكّر واقرأ في آن واحد فهناك أناساً يقرؤون ويفكرون كثيراً ولا يستفيدون شيئاً.. ذلك لأنهم يجوبون أقاليم الأدب في سيارة وكل همهم الحركة ويفتخرون بعدد ما قرؤوا من كتب في العام.

لا تهمل آراء الأجيال التي سبقتك بل يجب أن تعنى عناية خالصة بالكتب القديمة الخالدة ولنثق بما اختارته القرون السالفة من روائع الكتب، فقد يخطئ الاختيار رجل واحد وقد يخطئه جيل واحد ولكن الأجيال لا تخطئ جميعاً فشوقي وشكسبير وموليير جديرون بما نالو من مجد خالد على الدهر..

ومن الضروري أيضاً أن نهتم بالكتّاب المعاصرين لأننا بدون شك نجد فيهم أصدقاء يشعرون بما نشعر ويحتاجون لما نحتاج إليه.

فيما تقدم آراء مختلفة تصلح جميعاً أن يُعمل بها للتثقيف الذاتي بالإضافة إليها أن تدرس كاتباً من كبار الكتّاب المعاصرين وتتابع مؤلفاته وآراءه ثم تدرسها دراسة وافية فإنك ترتقي معه ذهنياً وتصل إلى مستواه وتقف على أساليب التفكير المنظم في جيلك، وبذلك تكتسب عصارة قلبه وفكره وتفكّر مع إنسان يُحسن التفكير

ولكن لا يجب أن تنساق معه بدون تفكيرك الحرّ، حاول أن توسّع دائرة اطلاعك واجعل ما أنتجه المفكرون أساساً لتكوّن لك رأياً على ضوئه. وبذلك قد تكتشف نقصاً تكمّله في رسالة زميلك الكاتب فتعلو عليه في هذا الزاد العقلي وترقى بالإنتاج الثقافي.

فَنّد آراء الكتاب وحلّلها وقارن بين ما احتوت عليه مؤلفاتهم. ولا تكتفي بهذا، بل كَرّس جهودك في ناحية من نواحي الثقافة واقتلها بحثاً وتمحيصاً وتتبّع جميع ما يكتب عنها في اللغات التي تعرفها، ولكن مع هذا لا بد أن تعرف أشياء كثيرة دون أن تتعمق فيها.

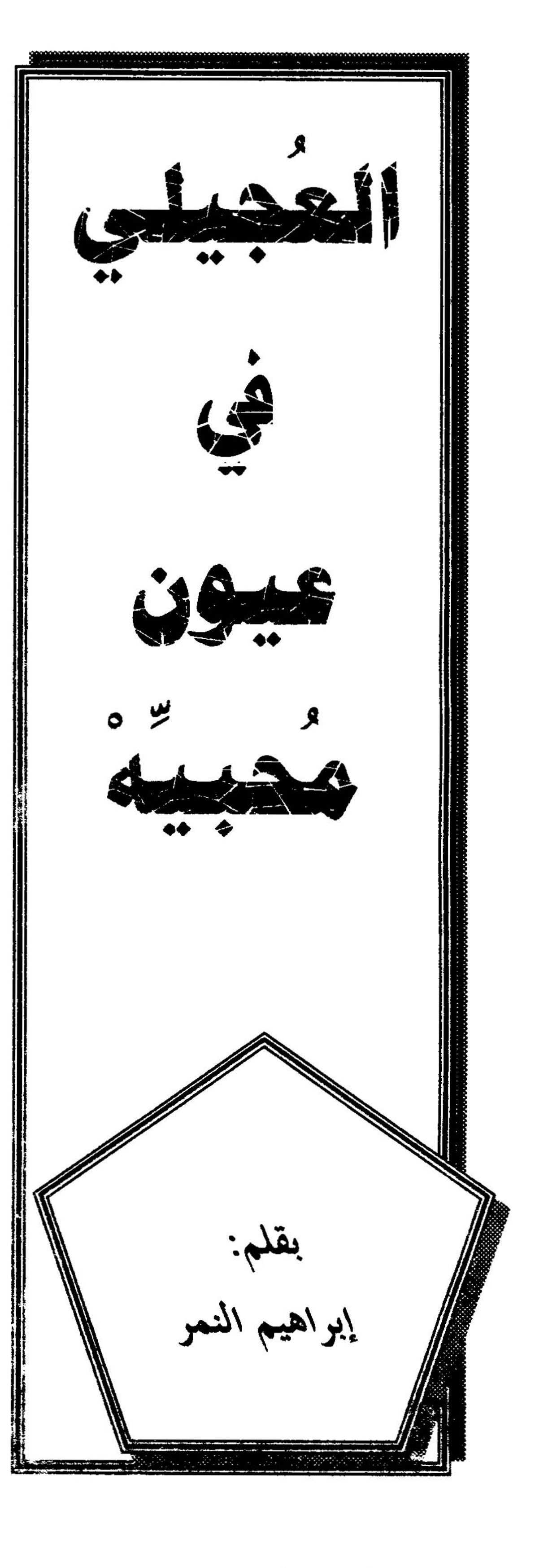
هذه هي أرقى أنواع القراءة التي تعمل عملها العظيم في حياة الفرد والمجتمع وتدفع الأمة نحو حضارة أرقى بما يتبع هذه القراءة البارعة من التفوق العلمي والأدبي والروحي.

ويُقبل على هذه القراءة أصحاب العقول الممتازة الذين يرون مع الفيلسوف العالم (إسحاق نيوتن) (أن الناس مع كل ما بلغوه من المعرفة وتوصلوا إليه من الاكتشافات، ليسوا إلاّ أولاداً صغاراً يلتقطون الأصداف والأعشاب التي ينبذها ويقذف بها بحر الحقائق وخضم المجهولات من حين إلى آخر) .

ويؤسفنا أن المضمار العلمي عندنا يخلو من مثل هذا القارئ العبقري ونسأل أنفسنا ما الذي جعل الاختراع والاستنباط والتفوق العلمي وقفاً على أبناء الغرب ! ليس السبب في عقولهم أو ذكائهم ولكن لأنهم عرفوا لذة القراءة وانغمسوا فيها وجعلوا شعارهم (اقرأ وفكّر واعملْ) فمكّنهم ما اكتسبوه من محصول من فهم العالم الذي حولهم وضبطه والكشف عن قوى الطبيعة المجهولة وإخضاعها لفائدة البشر وهؤلاء القرّاء البارعون هم حملة المشاعل في الأمم النواهض واجبهم ملائمة التطور والعون على التقدم كل من هؤلاء عرف كيف يستفيد مما يقرأه، وهضم ما قرأه فأصبح جزأً من كيانه العقلي وحجراً أساسياً لابتكار أو خلق أو عمل شيء جديد.

هكذا يُقبل القارئ الأديب على القراءة لتفتح لذهنه آفاقاً جديدة فتنهال عليه الخواطر التي تضطرب في نفسه وتريد أن تظهر، وتملأ قلبه وتريد أن تفيض، وتكرهه على أن يأخذ القلم ويسجل ما تمليه عليه تلك الأصوات الخافتة التي يسمعها داخل عقله وقلبه ويلمسها بإحساسه المرهف في جوه السحري الصامت.

إنه لا يقرأ لينقل ولكن ليحس نبضات الفن والإلهام والبصيرة.



في جلسة محفوفة بالشعر، يتجلى فيها إشـراق الإبـداع، وتظهر علامات التميّز في دمشـق العاصـمة، وفـي دار مجـلّة الثقافة بالـتحديد، الدكتور العُجيلي يقرأ على الأستاذ مدحـة عكاش وصحبه قصيدة صغيرة مضمناً فيها بيتاً من شعر المتنبي:

في الصدر همٌّ وفي الأجفان تسهيدُ
ماذا الذي يرتجي في حبِّكَ الغيدُ
تعرَّضتْ لكَ بعد الشَّيبِ فاتنةٌ
كأنّ قامتها الهيفاء أملودُ
غصنٌ من البانِ والعينانِ لحظهما
نبلٌ لها في شغاف القلب تسديدُ
ترنو لتغويك، لا تدري بما فعلتْ
بك السنون ولا أيامُها السود
وكيف روحَكَ صرف الدهر أحزنَها
فما لها بعد طولِ الشَّدو تغريدُ
يا حلوةَ الثغر أيام الهوى عبرتْ
وأصبحتْ ذكراً تلك السواعيدُ
لازال للحسنِ صرعى لا حلوم لهم
وللمفاتن عشّاقٌ معاميدُ
أما أنا فلساني بات ديدنه
بيتٌ له في حنايا الصدر ترديدُ:
(لم يتركِ الدّهرُ من قلبي ولا كبدي
شيئاً تتيمُه عينٌ ولا جيدُ)

وبدعابة جميلة قام الأستاذ مدحة عكاش بنشر هذه الأبيات على صفحات جريدة الثقافة مما أتاح الفرصة لكل محب ومُعجب، ليعارض هذه القصيدة مُعرجاً على بيت المتنبي مخاطباً العجيلي.

بدأها الشاعر بسام بليبل، الذي أطلع على القصيدة ورأى كم نحن بحاجة لأن نواسي هذا الكبير وننصره على الشيب الذي لم يؤثر إلاّ على شعره، ولم يتعد إلى فكره وإبداعه فيقول:

فكم يُكنى عن الأشواق ذو حرجٍ
ألا يُقال عميدُ القومِ معمودُ
ويذكر الشيب حين الليل أجمله
بالضوءِ مؤتزرٌ، بالنجم مرصودُ
ويصرفُ الطرف عنكم والفؤاد بكم
موكلٌ ولسانُ الحال معقودُ:
(لم يترك الدهرُ من قلبي ولا كبدي
شيئاً تتيمُهُ عينٌ ولا جيدُ)

ثم يأتي الشاعر محمد آنزور ليعارض الفكرة، من وجهة نظرٍ جميلة، معتبراً أن الأعراف والتقاليد هي التي أبعدت العجيلي وغيره عن العشق، وليس الشيب الأبيض الجميل فيقول:

إن كان قصرَ في حق الهوى بشرٌ
فليس ذاك لأنّ القلب جلمودُ
فما الذي يحجبُ الأشياخ عن غزلٍ
إلاّ اعتبارٌ وأعرافٌ وتقليدُ

ثم يأتي الشاعر حافظ سلامة الذي يتصور الناس جميعاً عشاقاً جهابذة فيقول:

عيدُ الحياة أزاهيرٌ تفوحُ شذيٌ
الكل ينشدُها، والكل مفؤودُ
لا زال للحُسنِ عشاقٌ جهابذةٌ
فيم الملام وربّ الحُسنِ معبودُ

ثم يأتي الشاعر إبراهيم النمر ليؤكد حقيقة التأثر الكبير الذي يدفعنا للتمسك بأي حرف من أحرف الدكتور العجيلي، لا سيما وقد وجدنا الفرصة سانحة، ساقتها لنا الصداقة التي ربطت الدكتور العجيلي بالأستاذ مدحة عكاش، صاحب مجلة الثقافة، فيقول:

يا سيدي في الهوى والعشقُ أجمله
عند اكتمال الرؤى تزهو الأناشيدُ
علّمتنا الحُبَّ حتى اشتدَ ساعدُنا
ورُحتَ تُنشِدُنا والشِّعرُ ترديدُ:
(لم يتركِ الدّهرُ من قلبي ولا كبدي
شيئاً تتيّمُه عينٌ ولا جيدُ

وتستمر الحكاية:

الجميع يتلقّف القصيدة، ويرى لزاماً عليه أن يكتب، كي لا يُتَّهَم بالتقصير، فيقول الشاعر محمد صالح الحميدي:

قم نجتني الحُبّ حُباً من أصائله
فإنّ قلبكَ خفقٌ وغريدُ
من كان يحلم فالرؤيا تتيمه
والذوق يعذبُ والإحساس مولودُ

ويبدو أن أحد المحبين قد أوصل القصيدة إلى المجلة العربية، مما أتاح للشاعر خالد الخنين فرصة الرد عليها ليقول:

يـا حـلوةَ الـثّغرِ لا همّ وتسهيدُ
لشـاعرٍ طالمـا غـنّتْ لـه البيدُ
إن كـان صدّكَ شيبٌ لاح مُشتعِلاً
فالـليلُ لـونٌ مـع الأقمارِ محمودُ
يا شاعر الرقة الفيحاء كم سعدتْ
بـكَ الـرّواياتُ وازدانتْ بها الجيدُ
وكـم تربّعت عرش النثر في أدبٍ
حـلو المـناهل فـي الآفاقِ ترديدُ

ثـم يأتي الشاعر الرّقي مازن العليوي الـذي وافـته القصـيدة، وهو في بلده الثاني المملكة العربية السعودية - فلا يجد أجمل من التخميس فيقول:

كـم للمُـنى فـي حـلا عينيكَ تنهيدْ
وكـم شـكوتَ وكـم غنّتْ لك البيدُ
(عيـدٌ بأيـة حـالٍ عُـدت يـا عيدُ)
(في الصدر همّ وفي الأجفان تسهيدُ)
ما الذي ترتجي في حُبّكَ الغيدُ
مـاذا تـرجي ودنيـا فيـك ظاعـنةٌ
تسـير فيهـا ولا تـأتيك داجـنةٌ
إلاّ شـجتْكَ وهـا جـاءتْكَ حائنةٌ
(تعرّضـتْ لـك بعيد الشيب فاتنةٌ
كأن قامتها الهيفاء أملودُ)

ثم يأتي الشعراء: محمد لطوف - عبد الـرحمن عـبد الكريم مجيب السوسي - نجم الدرويـش - موسـى السـالم - أحمد رشاد ويخـتمها الشاعر إبراهيم عبد الحمد بقصيدته الجميلة مخاطباً العجيلي واصفاً له فيقول:

شـيخ الـرجال فمـا يألوكَ تغريدُ
أنـتَ الطـبيبُ وكلّ اليأس مطرودُ
فمـا عهدنـاك للأحـزانِ مرتهن
ومـا عرفـناكَ في الأهوالِ رعديدُ
رُحمـاكَ يا سيدي، حسناءُ تطلبكمْ
قـد شـدَّها شـيبُكمْ والقلبُ معمودُ
ولا تُـلام فـإنَ الحُـبّ يُهـلكها
وأنـتَ بيـن كـرام الناسِ معدودُ

وفي الختام سيدي الدكتور:

اعذرني على ختامي فما وجدت في كل مـا مـرّ، مـا يـليق بمقامك، لذا أنقل ما قال الدكـتور عـلي شلق في المتنبي الذي تحبه، وإنه ليكاد يعبّر عما في داخلنا نحن تجاهك:

أنـا سـادنُ هيكـل، ومحركُ مجمر، وحسـبي من الترتيل في جوانب قبتكَ السّماء أن أكـون إحصـائياً لبعض ما تركتهُ من نثارِ معدنك الذي لا تزال النجوم تحلم ببعضٍ بريقهِ، لذلـك دعـني أعوذ الجمال الجليل في شعرك المجد، ببعض غبار الكلام.

من النجوم الغوارب:

زهير ميرزا

(١٩٢٢ - ١٩٥٦م)

الشاعر المحلق

فيما وراء المجهول

بقلم:
أحمد سعيد هواش

الشعراء الراحلون في نضارة الشباب، الذين اختطفتهم يد المنون قبل الأوان كثرٌ في أدبنا العربي: طرفة بن العبد، أبي فراس الحمداني، أبي القاسم الشابي، ابراهيم طوقان، عبد الرحيم محمود، كمال ناصر، معين بسيسو.. وغيرهم مثل الشاعر عبد السلام عيون السود .

إنهم الشهب المحترقة في سماء الشعر العربي، إنهم المشاعل المتوهجة المتأججة أواراً ونوراً ولتنطفئ وإلى الأبد..

وشاعرنا الراحل زهير ميرزا من تلك الحزمة الضوئية المنطفئة بعد أن سطع نورها إيذاناً بالرحيل المبكر.. حيث كانت مأساته "حين صعد طيارة، كما صعد فوزي المعلوف، ولكنه سقط من الأعالي مع الحطام، وهو يحاول بلوغ السماء، فأصبح بعد قليل من بني الموت، ورجع إلى التراب الذي نشأ منه" (١)

وكان شاعرنا الراحل زهير ميرزا قد وُلدَ في دمشق عام ١٩٢٢م في أسرة دمشقية قديمة؛ وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس دمشق، وهو مجاز في الأدب العربي من جامعة دمشق ١٩٤٨ م.

درّس في ثانوية السويداء، وفي ثانوية دمشق الأهلية، ويجيد الإنكليزية والفرنسية ، وقد زار مصر ولبنان وعمل في المملكة العربية السعودية مدرساً.

لقي مصرعه على أثر تحطم طائرة الركاب السورية في طريق عودته من حلب لدمشق في ٢٤ شباط ١٩٥٦ حيث كان ذاهباً لتعزية صديق له..

نشر مقالات وقصائد في عدة صحف سورية ولبنانية ومصرية.. صدر له:

١- كافر (ديوان شعر) دمشق دار اليقظة (٩٠) ص . ١٩٤٨م.

٢- الفضيلة العربية. دمشق دار اليقظة (١٥٠) ص.
٣- إيليا أبو ماضي، شاعر المهجر الأكبر، دمشق، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر ١٩٦٣ م بعد موت الشاعر، وطبعه ثانية بنفس الدار عام ١٩٦٧ م تحوي على جميع شعر الشاعر إيليا أبو ماضي. (٢)

شعر الشاعر زهير ميرزا:

كان الشاعر الراحل زهير ميرزا نابغة، موهوباً ذا شخصية غنية قلقة انعكست في شعره: الوطني، الغزلي، وفي رثائه للشهداء، وبعض الشخصيات الوطنية العربية والسورية.. وهو في رثائه في بعض قصائده كأنه يرثي نفسه.

لقد أهدى الشاعر الراحل زهير ميرزا ديوانه (كافر):

إلى الجيل المتصاعد الذي نحن أمه وأبوه
أضع هذه اللبنة المتواضعة في صلاح فكره الحي الخالد..
يهزج بـ "هزيج الأبطال"
ويتعالى على ذرى الأجيال
رائده الفكر، ومرآته الفكر، واتجاهه!
نحو مطلع الشمس.

إنه اهداء فيه سمو وتحليق وطني وقومي، نثر يسمو لمنزلة الشعر.. لنسمعه يرد على قصيدة الشاعر الراحل نزار قباني (خبز وحشيش وقمر) فيقول (٣) :

في بلادي
في بلاد الكبرياء
حيث يحيا الأقوياء
ويعيشون، على الدهر، حياة الأنبياء
وينامون على حلم وأمجاد وضاء
حيث لا جبن، ولا ضعف، ولا دنيا رخاء..
كلهم ذاك "الهلالي"
عندما يدعوهمو داعي الرجال
فنراهم زاهدين
يطلبون الموت مرفوعي الجبين..

إلى أن يقول :

في بلادي
وطن النور، وأرض الأولياء
مسرح التاريخ، يعتز بأبطال اللقاء
بلد الحكمة، والنخوة، دوماً، والإباء
بلد الأرض التي ضمت مفاهيم السماء
كما ترى فيها قبور الأولياء
حيث تهتز على جدرانها أيدي النساء..
أمهاتي تلك، جادت برجال أقوياء
ليس فيهم جبناء أدعياء..

إنه رد يثلج الصدر، وهو محق كشاعر عربي آلمه ما جاء في قصيدة الشاعر نزار قباني من غمز ولمز وصلا لحد لا يمكن السكوت عنه، إذ وصف الأمة العربية بأوصاف تفرح الأعداء.. وكأن الأجدر بالشاعر نزار أن يُلمّح لا يُصرّح..

وفي المقابل نجد شاعرنا الراحل زهير ميرزا يشيد ببطولات رجالات الأمة العربية بعامة، والسورية بخاصة، مما يرفع من معنويات أبطال الأمة.. المتحفزين لمحاربة الصهاينة الذين أقاموا دولتهم المزعومة على أرض فلسطين العربية إذ قال:

حدّثي يا شمسُ عن بأس الرجال
نحنُ ذاكَ الليثُ في ساح القتالِ
هل سألت الدّهر عنا والليالي؟
إنما السُّوريُّ من عزم الجبالِ !..
حدّثي يا شمس!..

إلى أن يقول مظهراً شجاعة المقاتلين العرب:

قد جعلنا من لظى الجمر الحُساما
وركبنا الدهرَ للمجد اقتحاما
وأذقناهم من الكأس الحماما
وأدرناها وقلنا: لن نضاما
حدثي يا شمسُ..

ومن مذكرات الشاعر الراحل زهير ميرزا نقرأ بأنه كان يعمل في بلدة القنيطرة السورية إبان احتدام المعارك في عام ١٩٤٨م إذ كان قريباً من ساحة القتال وهو الشاعر الوطني المرهف الإحساس، فنقرأ له قصيدة بعنوان "جيشنا" نظمها خصيصاً ليوم الجيش السوري فيقول منها (٤) :

أهتف اليوم بهتافِ الجنود.. والبنود
وأصدحِ اليومَ بحوشيِ النشيد.. والرُعود
وأوغل الجيش فمن آياته .. حطمُ القيود

إلى أن يقول:

جيشنا جيشُ الخلاصِ المفتدى
لن يهمدا لن يهمدا
وبه نزدادُ عزاً أمجدا
كي نخلدا كي نخلدا
نحن نفديه شباباً وشيوخاً
بالوليدِ.. والطريفِ والتليدِ!

نعم .. إنه جيشنا الباسل نفديه، بالطريف والتليد.. إنه حامي الديار وأمل الشعب بتحرير فلسطين واستردادها من المحتلين الصهاينة الذين لفظتهم أوطانهم.

وإن استرداد فلسطين لا يكون إلاّ بالقوة المادية والمعنوية المستمدين من صلابة المقاتلين اللذين يستمدون قوتهم من تاريخهم وشعبهم العربي الزاخر بالبطولة والشجاعة والتضحية، وقد ذكر الشاعر ميرزا أصالة الأمة العربية ودافع عن كبريائها وذكر بطولة جنود سورية العربية التي عرفتها شعاب فلسطين، وغنى لهم "أنشودة الحب" و "جيشنا" فتلاقت بطولات الأمة وأمجادها في الماضي والحاضر، فها هو ذا يُطمئن "فلسطين" الجريحة داعياً للحرب، وطرد المعتدين الصهاينة فلنسمعه مزمجراً فيقول (٥) :

أي صوت يموج في الآباد
زائغ الوقع ثائر الإنشاد
يتعالى ضجيجه الحـ
ـر اهزوجات ركب في شاسع البيدِ غاد
شق صدر الصحراء يملؤها اليو
م زئيراً مدمدم الإرعاد

ثم يخاطب الشاعر "فلسطين" داعياً إياها للدفاع عن التراب الغالي المقدس، ولتتشظى حجارتها قنابل حارقة في وجه الأعادي لتكون الرديف القوي للمجاهدين العرب فيقول:

الهبي النذل بالسياط، فلسطيـ
ـن ، لا تنامي على اعتسافِ الأعادي
واقرعي شن معركات تدوّي
أبداً في مسامع الأحفاد

إلى أن يقول مظهراً بطولة جند الأمة العربية الميامين الذين جاءوا لنصرة شعب فلسطين:

كلهم خالد إذا اهتدف الفتح
مشى بالجنود من كل واد
عربيٌ جهاده، بدويٌ
بأسه، إن يرم ينل باتقادِ
ملكوا المشرقين إلاّ قليلا
ومشت خيلهم على الأجساد

والبطولة والشهادة صنوان متلازمان، وقد بذل المجاهدون العرب الدماء الزكية على تراب فلسطين، قدموها رخيصة عربون وفاء للوطن الجريح، لنسمع الشاعر الغيور على أمته العربية يشيد بمكمة الشهيد والشهادة التي تعطّر التراب الغالي بالدماء الزكية التي بدونها لا تحرر الأرض فيقول (٦) زهير ميرزا:

أي جرح يضوع عطراً وندّا
فالثرى مشرق الأديم مندّى
والأهازيج عرّت الأفق الأ
شهقات لم تقو أخذا وردّا
شرقت بالدم الزكي تلوّى
أفعواناً على الثرى يتبدّى
كل ما لم يخط بالدم تمحو
ه الليالي مهما تطاول عهدا..

وما أجمل هذا المشهد الذي يصور لنا فيه الشاعر بطولة الشهيد وهو يقاتل ليستشهد دفاعاً عن الثرى الطاهر، إنها لوحة مصورة نقلها إلينا عدسة مصور فنان إذ يقول الشاعر زهير ميرزا:

أزفت ساعة النضال.. وماج الـ
ـجحفل المجر.. بالبطولات يحدى
وتوالى على النفوس صراع
أكبر الدهر ما رأى وتبدّى
وارتمى الشبل في الغمار وقد جرَّد
سيفاً يضيء وجهاً وزندا
وانثنى بين ناظريه بقايا
بقع من دماء عزّ تصدّى

إلى أن يقول:

ضاع منه صوابه حين دوّت
زأرة الليث خرَّ إذا ما تردّى
حسبوه مازال ينضح عزماً
من بقايا لما تزل تتحدى
أكبروا أن يخرَّ.. فاقتحموا المو
ت يفدّونه وما كان يفدى

إنهم الشهداء مشاعل نور على طريق الخلاص والنصر، إنهم الصوى على طريق العزة والكرامة، فليحمل الشهداء على الهامات وليكرَّموا من شعوبهم كأمثولة يقتدى بها، لينهج نهجهم أبناء الوطن والأجيال اللاحقة، كما كرمهم الله تعالى:

كفنوه بثوبه ودماه
ثم عادوا بحفنة منه تندى
وطووا جرحه على النصر والمجد
وأعظم به على الدهر مجدا
كلّ ما لم يخط بالدم تمحو
ه الليالي مهما تطاول عهدا

وكما بكى شاعرنا الشهيد الذي بذل دمه رخيصاً في سبيل الأمة العربية وكرامتها، فها هو يبكي أحد رجالات الأمة العربية السورية، المجاهد المغفور له "سعد الله الجابري" أحد رموز الوطنية السورية، الذين عملوا على استقلال الوطن بفكرهم وقلمهم وجهادهم فيقول (٧) :

كيف أبكيك والمآقي جوامدْ
وبأي الدموع يُبكى المجاهدْ؟

أبـــدم الـــبيان، والـــلفظُ ، جـدٌ
عيـــيٌ يـــنوء دون المقاصـــدْ
أم بدمـــع الوفـــاء، والـــناس صنفا
ن ، مـــتأسٍ أمجـــاده ومعـــاند؟
لســـت أدري فقـــد تلقفـــني الخطـ
ـــبُ وألـــوى بمـــنطقي والقصائدْ
وادلهمَّـــتْ ســـحائب الفكر واعتافت
عـــن الفيـــض باضـــطراب المرافدْ

لقد تلاقت الشاعرية والوفاء والصدق فكـــانت تـــلك الأبيات المؤثرة من شاعر وطني يـــودع علماً في الوطنية والرجولة ومثلة تبكي العيـــون دماً.. فلكأني أقرأ رثاء الشاعر زهير ميرزا لنفسه..

ولمـــا كـــان الشاعر زهير ميرزا وفياً لأبـــناء وطـــنه شهداء ورجالات وطن فبكاهم بأحـــرّ الدمـــوع وأصدقها، كذلك قابله شعراء الوطن معروفاً بمعروف، ووفاءً بوفاء، ها هو الشاعر المرحوم زكي المحاسني يرثي الشاعر "ميـــرزا" مظهـــراً خســـارة الوطن بفقد شاعرٍ وطـــنيٍ رحـــل في عز الشباب، كان أمثولة في الوطنيةِ والشاعرية فقال (٨) :

جـــــاء الـــــربيعُ فـــــبوحي
ومـــــثل زهـــــرك فوحـــــي
طمـــــي الضـــــلوع انـــــبجاس
كالســـــيل يهمـــــي بـــــروحي
فـــــبكى الضـــــاد فقـــــد آن
أن تـــــنقى جـــــروحي
تولـــــول الـــــريح وهـــــناً
كأنهـــــا مـــــن ذبيـــــح

وللشـــــهيد رفيـــــف،
يمـــــوج عـــــند الســـــفوح

تـــلك لمحـــات وإضاءات على شاعر فقدنـــاه في شرخ الشباب، فنسيناه، وقد أعطى أمـــته العربية ووطنه سورية أجمل ألحانه في الحب والوطنية، فهل نرد له بعض الجميل؟!!

وفـــي الخـــتام لابد لي من ذكر فقرات صـــغيرة ممـــا جـــاء في مجلة الرسالة الغراء لصـــاحبها أحمد حسن الزيات، حيث قال ناقدها المـــرحوم أنور المعداوي بصدد ديوان (كافر) للراحل زهير ميرزا:

".. وهكـــذا يمضـــي زهير ميرزا في "لقـــاء" و "غانيـــة وفكـــر" و "كافر" و "مصرع المـــثال" .. إن ريشة زهير قد بلغت الغاية في تلوين هذه اللوحة التي تمثل قوة الصراع بين بائعة الجسد وبين راهب الفكر!

إنـــني أود أن ترجعوا إلى المجموعة كلها لتقضوا مع الشاعر لحظات جميلة وممتعة كتلك قضيتها معه.

١- مـــن تصـــدير الدكـــتور سامي الدهان لكتاب: إيليا أبو ماضـــي شـــاعر المهجر الأكبر، شعر ودراسة الشاعر الفقيـــد زهير ميرزا، طبعة ثانية منقحة مزيدة تحتوي شعر الشاعر كله، دار اليقظة دمشق ١٩٦٣م .
٢- معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، المحامي عبد القادر عياش ، دار الفكر بدمشق ص (٥٠٧) .
٣- مـــن قصـــيدة مخطوطـــة، مؤرخـــة ١٩٥٥/٢/١٥ م موجودة لدى زوجته وابنته..
٤- من قصيدة (جيشنا) مخطوطة وموجودة لدى أسرته.
٥- مـــن قصـــيدة (فلسطين) مخطوطة وموجودة لدى أسرة الشاعر الراحل زهير ميرزا
٦- مـــن قصـــيدة (الشهيد) مخطوطة وموجودة لدى أسرة الشاعر زهير ميرزا.
٧- مـــن قصـــيدة بعنوان (في أربعين المغفور له سعد الله الجابـــر) المتوفى في صباح الجمعة في ١٩٤٧/٦/٢٠ في حلب ، مخطوطة وموجودة لدى أسرة الشاعر.
٨- مـــن قصـــيدة (هـــبوب الـــربيع) بقـــلم الدكتور زكي المحاسني، رثاء زهير ميرزا، دمشق نيسان ١٩٥٦ م